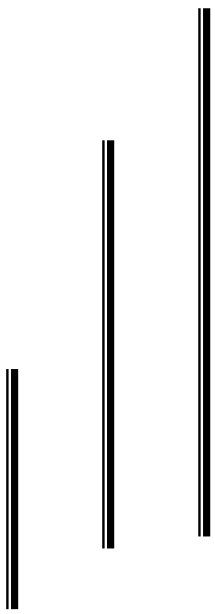

# سورین

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mailunecriv@net.sy
aru@net.sy
موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت
www.awu-dam.org

*لوحة الغلاف : للفنان الإيراني الكبير*
*رضا كاتوزريان*

❑❑

**محمد رشيد رويلي**

# ســـــورين

**رواية**

**من منشورات اتحاد الكتاب العرب**
**دمشق – 2005**

# الإهداء

- إلى روح العلامة (علي بك صائب) الذي نظم أهزوجة النضال، ورحل عن الدنيا بصمت كالأولياء والقديسين.
- إلى روح المفكر السوري (ياسين الحافظ) ابن دير الزور البار... ابن الأرمنية كما كان يحلو للبعض أن يسميه.
- إلى أرواح شهدائنا الأبرار الذين ضحوا بأرواحهم وأولادهم وأموالهم، كي نعيش أحراراً أباة.
- إلى الصديق العزيز (سورين) والغاليتين (هاصميك وتروندا) والأخوات (نورا، ميرنا، لوسين...)

أهدي هذه الرواية

***محمد رشيد رويلي***

**« لا شيء يجعلنا كباراً كالألم الكبير »**

ــ لامارتين ــ

## رأي في الرواية

أ. د. عبد الحق حمادي الهواس
دكتوراه في اللغة العربية وآدابها.

ما قرأت رواية أصيلة من عيون الأدب العالمي إلا وجدت نفسي أعيش تفاصيلها أثناء وبعد قراءتها. ولا غرو في ذلك فالرواية المتميزة هي التي تستولي عليك وتدخلك في عالمها، بل تأسرك وتسيّرك حسب ما يريد كاتبها، لتصبح جزءاً منها تقول ما قالته، وتحب وتكره، وتوافق وترفض وتفرح وتحزن، وتثور وتهدأ وفق مجرى أحداثها وموقف شخصياتها في سلوكهم الحيوي.

وبهذا التأثير تقاس عظمة العمل المبدع، ويشار إلى نجاحه وإبداعه، وحقاً هكذا كان أثر رواية (سورين) للكاتب محمد رشيد الرويلي في نفسي، وأنا أعيش أحداثها، وأنفعل وأتفاعل مع تصاعدها وتطورها وحركة شخوصها وتعاملهم مع الأحداث الكبرى والصغرى فيها..

إن أهم ما يميز الرواية هو منهجها في رسم الحدث الذي بنيت عليه إذ استطاع الكاتب أن يصور الواقع المادي والمعنوي في المرحلة التي تناولها، أعني قسوة الطبيعة في بيئة دير الزور، وسلوك أهلها اتجاه كوارثها، ليبرز الجانب الإنساني التكافلي نحو المنكوبين، ليكون ذلك توطئة لإظهار القيم العليا لهذه المدينة التي ستحتضن المنكوبين من خارج حدودها الجغرافية والعرقية والدينية.

فالكاتب بذكائه لم يفتعل المسوّغ الإنساني، وإنما صوّره، واختاره باكتشاف إبداعي يمنح المتلقي الأسباب المنطقية الطبيعة للفعل الإنساني نحو الآخر بقطع النظر عن انتمائه وهويته، والكاتب يؤكد الأصالة، وهو يتحدث عن غياب الثقافة والعلم، وأن هذه الأصالة طبع في المجتمع وليست اكتساباً، وإذا كانت الثقافة والعلم يهذبان الأصالة ويطوران فعلها الإنساني الشمولي، فإنهما بالتأكيد لا يخلقانها، ولا يمنحانها لشعب مقطوع الجذور الحضارية، وتلك مقولة قاعدية

يستخلصها القارئ من سطور الكاتب أن هذا الشعب الذي يرزخ تحت نير الاستبداد وما يعانيه من تخلف وأمية هو جزء من أمة عظيمة لها تاريخها العظيم، وتعيش كلها المعاناة نفسها محافظة على أصالتها وارتباطها في أصولها وعطائها بانتظار اللحظة التاريخية المهيئة للانطلاق، وأخذ المبادرة للنهوض ثانية وإغناء وإثراء الواقعين القومي والإنساني.

إن الصراع الذي أداره الكاتب اتجاه الكارثة الطبيعية والكارثة السياسية كان الهدف منه واحداً انعكاسياً بتأثير كل منهما بالآخر، واتهام المستبد بنتائجه القاسية. لقد عرف الكاتب كيف يقيم هذه الثنائية في واقع متخلف يعجّ بالمرض الجسدي والاجتماعي، وصورة المتحكم بهذا الواقع ومسؤوليته المباشرة عن هذا الواقع المزري والمعقّد، وهذا الواقع المؤلم الذي ينوء بأعباء الجوى والسلاسل عليه أن يقف على قدميه رغم قسوة التحديات ليخفف أو يشارك في معاناة شعب آخر ساقه القدر إلى ساحته في أبشع مجزرة وحشية لطّخت جبين الإنسانية بالعار والشنار.

إن كتابة التاريخ في توثيقه وتثبيت أحداثه، والحكم لها أو عليها، هو عمل مختصيه ورواته ونقاده حين يسجلون حوادثه الكبرى ونتائجها، وهمهم أن يذكّروا الإنسانية بما جرى عملاً بقوانينها الكبرى، أما الرواية التاريخية فإنها تضيف على ذلك تفاصيل المعاناة في دقائقها إذ يجسّد الروائي أحداثه من خلال! إشراك الآخر في هذه المعاناة، وإظهار تعاطفه مما يجعل منها عملاً حياً لا تغيب أحداثه في بطون الكتب التاريخية، أو ليحضر أثرها في مجموعة المختصين أو المهتمين بشؤون التاريخ وحركته، وإنصافهم أو تجاهلهم أو ظلمهم لشعب ومشروعية قضيته، أو نسيان أو استذكار ما حلّ به في مرحلة تاريخية مظلمة عملت الأحداث الأخرى على نسيانها، أو إلقاء الغطاء عليها، ويأتي نجاح الرواية من نجاح كاتبها وقدرته في رسم الحدث وجزئياته وشخوصه الرئيسة والثانوية، وتطور هذا الحدث بمؤثراته وصولاً إلى تشابكها في ذروتها، ثم انفراجها وحلّها، ورؤيته نحو المستقبل في استخلاصه الفكري للنتائج الباعثة للمستقبل، أو الدافعة لحركة التاريخ نحو الأمام بغية تغيير الواقع، أو كسر الرتابة المستطيلة تحت قيود الظلم السياسي والقهر الاجتماعي وسلب حرية وإرادة الأخر.

ومهما كان الحدث عظيماً والهدف نبيلاً، فإنه رهن بقدرة الكاتب على تصويره وحسن تناوله، وهذا ما يُسجّل للكاتب محمد رشيد الرويلي، فهو لم يتألق بتصويره وحسن تناوله فحسب، وإنما أيضاً في قدرته على بث الحياة في جميع مناحيها الكبرى والصغرى في عمل متكامل يتحرك فيه الجزء نحو الكل، وينفتح فيه الكل نحو الجزء ليكمل أبعاد الصورة في ألوانها المواكبة لحقيقة وجودها من دون افتعال أو خلط أو مبالغة أو إهمال، وهذه الدقة أضفت على العمل شكلاً من أشكال التشويق الأخاذ بفعل أسلوب الكاتب صاحب التجربة الناشئة عن ممارسته الطويلة لصناعة الأدب، مما أتاح له إمكانية تقدير المواقف بعين الناقد الذي لا يطغى عنده موقف على آخر، أو يُضخّم ما لا يستحق، أو يقلّل من شأن ما يجب إبرازه وإعطاؤه أهميته، ورغم عمق هذه التجربة، فإن الكاتب الأديب لم يتدخل في صنع الأحداث، ولم يركب ألسنة شخوصه، أو يتربع داخل عقولهم، أو يتبطن عالمهم الداخل، وتلك معضلة كبرى عزَّ في عالم الرواية حلُّها، ومركب صعب كثيراً ما يجنح بربانه أو يتيه به حين يتدخل الكاتب بثقافته وعلمه ليقول ما لا يقوله شخوصه.

وكان مما أسعف الكاتب حضور معجمه اللغوي الثرّ، وحسن انتقائه ما يناسب تصويره، فاللغة التعبيرية والتصويرية أدت وظيفتها في إنجاح العمل، وإدخال المتلقي به، وأخذ مصادقته عليه.

فكان لمعنى الحزن ألفاظه، ولمعنى الفرح ألفاظه، إن همس الحزن سمع القارئ أنّاته، وإن جلجل الفرح طار المتلقي معه، وكان للرفض صوته، إن قال لا رددت الأصداء صداه، وكان للحماسة حضورها، إن التهبت تأججت معها العواطف والمشاعر والأحاسيس، وإذا القارئ يعيش الماضي بكل ما فيه من حياة تتدفق أنفاسها مع أنفاسه، ويشارك بأحداثها في أعماقها واحداً منها لا مراقباً عن بعد لما جرى بها.

وهذا ما عنيته بالرواية التاريخية ومهمتها الرئيسة في نقل تفاصيلها الحيوية وقدرتها على إشراك الآخر في هدفها إشراكاً يصل حدّ تبني ذلك الهدف وجعله جزءاً أصيلاً من موقفه الفكري في دفاعه عن كل المظلومين، أو في تبنيه للعدالة والحق والخير في أوسع معانيها ومفاهيمها الإنسانية.

أستطيع أن أقول بملء فيّ أنني فخور بشعب أنتمي إليه، أكد لي فخري بأمتي وأصالة قيمها وعظمة تاريخها، وهذا فضل الكاتب علي، أما فضله عليك أخي القارئ الكريم، فهذا ما ستقوله أنت، ولربما قلت أكثر بكثير مما قلته.

# كلمة لابدَّ منها

في عنفوان التشظي يقضم الأديب أعزَّ أحلامه، وأغلى أمانيه، يلمّ الفجر من ليل تناسل في الذاكرة، ليعيد طلاء الفصول، ويمسح الوجه الذاهل بحفنةٍ من صبرٍ جميل.

وأنا أكتب هذه الرواية التي أرّقتني، تراءت لي نوافذ الأحلام وهي تستجدي صلاة الريح، ودعاء الركّع السجود، والأرض محفورة بحوافر أحصنة القهر، تلتف عروقها حول أكوام من الصدأ وأكداس من العفونة...

تراءت لي همهمات الفرح تتسلل بفضول مثل قطط الأزقة ووجوه المحسنين، فكنت أتماهى في دروب الليل الطويل، أساهر نسيم الوديان والتلال العابقة بالذكريات، وأستعيد حوار العنادل بين أغصان الغَرَب والطرفاء، فأحمحم كفرس جندلت فارسها في لحظة المجابهة...

وأنا أكتب هذه الرواية تراءت لي دموع اليتامى، وشهقات الأيامى، وندب الثكالى، والألم يعتصر القلب حتَّى حدود السقم، وتراءى لي من احتضن كومة تراب بكر، يشمها بكبرياء ويقبّلها بإباء، ثمَّ يذروها برفق على أجساد من رحلوا، لتنبت أزاهير الخلاص...

أعترف بأن الأوهام قذفتني من شاسع السهد طويلاً، لكنها لم تستطع أن تنتزع من الذاكرة صور الوجوه الناحلة التي حاصرها النفي والتشرد والظلم، وهي تسطّر ملاحم خالدة في التضحية والإيثار...

لم تستطع أن تطمس في سِفر التاريخ حقبةً كانت بدايتها مؤلمة، ونهايتها مفرحة...

كانت البدايات سَوقيات الأرمن إلى دير الزور، إلى حيث الدفء والحنان عام 1915، وكانت النهايات سَوق الفرنسيين إلى حيث الخزي والعار عام 1946، ولعلّي من خلال هذه الرواية ألامس جانباً من الحقيقة التي لا تخفى، وأعبّر عن دقائق اللحظات الحرجة والألم الإنساني والصفاء الروحي والعزيمة المتوثبة التي كانت مشاعل نور تضيء عتمة الطريق ووحشة المكان، ورحم الله الأديب والروائي الكبير (عبد الرحمن منيف) حيث يقول في (الكاتب والمنفى):

(إن الأجيال القادمة لابدَّ أن تقرأ التاريخ الذي نعيشه الآن وغداً، ليس من كتب التاريخ المصقولة، وإنما من روايات هذا الجيل والأجيال القادمة).

***دير الزور 2004/7/10***
**محمد رشيد رويلي**

تُرى هل أرى مركب جسمي معتادَ الغرق مرمماً؟
ترى هل أرى فَلك روحي المحزن عامراً من جديد؟
ترى هل أرى تشتّتي بعيد المسافة موحداً من جديد؟
ترى هل أرى قلبي المكتئب الحزين منشرحاً؟
ترى هل أرى خيمتي المهدودة أنا البائس منصوبة مرة أخرى؟
ترى هل أراني أنا الأسير الممقوت محرّراً؟

**. كتاب المراثي . من الحوار الخامس والعشرين .**
**ص189 . كريكور ناريكاستي . ترجمة نزار خليلي.**

# (1)

لم يكن الفرات هادئاً... إنه يشاطر الريح دويّه، كما يشاطر أبناء المدينة أحزانهم، كان صاخباً هادراً ساخطاً متوعداً كل الذين رسموا السدود في طريقه، وعرقلوا شغبه بأوخم العواقب، فقذف موجات هائجة كنست كل النفايات، واقتحمت جدراً تنزّ عفونةً وجرفت كل ما اختزنه المتشاطئون من مؤونة...

كان الشيوخ والعجائز يعرفون سطوته وقرابينه، فكانوا يصلّون، ويرفعون الأكفّ بالدعاء كلّما أهلّ عليهم شهر نيسان، وكان الفرات عنيداً عاقاً لا يقيم وزناً لصلوات، ولا يكترث بالأدعيات... يقتحم حصون الأمل بهمجية، ويفتح حقائب الصمت بعنجهية، ويهزّ جذع الريح بقوة، فيتساقط الدمع المعتّق أياماً، وتُجلد الوجوه بسياط اللوعة والرهبة...

هو الفرات الذي نعشقه رغم مآسيه وجرائره... ملهم الأدباء وملتقى الأحبة، وشريان الحياة الذي يمدّنا بالعطاء... هو الفرات الذي نطوّف على سطحه الرقراق في كل حينٍ شموع الأمل... لم يصمد أحدٌ أمام هيجانه المدمّر... وحدها أشجار التين استطاعت أن تردّ له الصفعات رغم الغثاء الذي جلل لحاءها، ولوى أعناق المزروعات التي لاذت بها...

كل عام، وفي نيسان يرسم الفرات للمنطقة خرائط ملوّنة، حدودها صحارى ومتاهات وأخاديد تهزّ الوجدان، وتقشعرّ منها الأبدان...

الرجال يستغيثون، والأطفال يبكون، والشيوخ يحوقلون، أمَّا النساء فتندبن، وتولولن بعصبية...

قال شيخ المدينة لمن احتشد أمامه:

. إنها ضريبة البقاء يا أبنائي، وامتحان من الله تعالى... أكثِروا من ذكر الله والعمل الصالح، فبهما منجاتكم...

هزّ الواقفون رؤوسهم بأسى، وتفرقوا دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة.

أزهار الربيع لوّثها الغثاء، فأصبحت نفايات، والبسمة اختفت من الشفاه، والعيون النديّة ما زالت تذرف دموعاً حارقة تلهب الوجنات...

إيه أيها الآتي... ماذا تركت لنا؟!

البيوت تآكلت حيطانها، وتقشّر طلاؤها، وفقدت الأبواب والنوافذ انتماءَها لأي لونٍ سوى الصدأ والرطوبة...

الخوف يمتد دماً حتَّى انتهاءات الوداع، وقد طيّرت أشياءَها الأشياء، وانسابت على الغثاء تبحث عن سر الضياع.

إيه أيها النهر الجبّار كنت تمنحنا فرحاً، ألقاً، وتحذّرنا من يباب الأجل... كنت تهدي إلينا عطر الأمل، ثمَّ تغرس في حقولنا فسائل الحب والمودة... كنت تقطف ذوب القلوب، وتجعلنا نتماهى على عجل، كنت توقد نار العشيات في مرابِعنا فيهلّ الحجل...

ماذا جرى لك اليوم على غير عادتك؟!

لِمَ جعلتنا في المدى المفتوح وجعاً ينوح؟!

لِمَ توزعت في مفردات الوقت أعاصير تهمي خرائب ودموعاً؟!

لِمَ لوثت نقاء الصمت وصفاء الصبر، وجعلت الفقراء يزدادون فقراً، والأخيار يمدون أياديهم للأشرار؟!

وقف أبو أحمد الصباغ متسمراً أمام ما آلت إليه أحوال بيته المتصدّع، وما خلّفه الفيضان... لقد أفسد أصبغته كلّها، ولوّث الأصواف المتراكمة، وغدت جدران بيته وأرضيته خرائط ملوّنة، ولوحات تشكيلية مذهلة، أمَّا مؤونة البيت من الطحين والبرغل والسكر والشاي وغير ذلك، فقد أصبحت مع الغثاء طعاماً لهوام الأرض وأسماك النهر.

حوقل أبو أحمد، وبسمل عدّة مرات، وعندما عجز أهل بيته عن إنقاذ شيء، رفع يده إلى السماء، سائلاً الله تعالى الرحمة والعون.

كان ابنه الوحيد (أحمد) يساعد أمه وأخته (حميدة) في تصريف الماء، ونشر الفراش والملابس على مصطبة مرتفعة، وهو يتأملهم واحداً تلو الآخر...

عيناه ترقرقتا بالدمع، وهما تفتشان عن وجيب خافق متموج بالحياة... عن ربيع دافئ وشوق عابق لإبنه الوحيد الذي بلغ مبلغ الرجال، ولكن من أين ونرجس الوقت ذبول، وقامة العمر انحناء، وغابة الحلم هباء؟! من أين والأماني استطابت نومها في مهدها والأغاني في سبات؟!

قال أحمد لأبيه عندما بلغ به التأثر مداه:

. لا تحزن يا أبي... بإذن الله سأعيد صباغة الأصواف، وستكون أفضل ممَّا سبق...

التفت أبو أحمد إلى ابنه فوجد دمعتين تنسابان بهدوء إلى وجنتيه، اقترب منه كثيراً، وطبع على جبهته قبلة دامعة، وقال:

. أنا يا ولدي لم أحزن يوماً على قضاء الله وقدره... أليست هذه حالنا في كل نيسان؟! صحيح أن فيضان هذا العام كان مأساوياً، لكن الله لن يتخلى عنا لأننا صالحون. الله يشهد أنني لم أرتكب إثماً أو جناية، ولم أطعمكم إلا الحلال. كل ما أطلبه من الله تعالى اللطف بنا، وأن يبقيك وأختك ذخراً وسنداً... أنت يا ولدي ما زلت شاباً وعندما تتزوج إن شاء الله، وتكوِّن أسرة، ستعرف الكثير عن معاناة الأب.

. أبي... ليس الزواج هاجسي الآن... أريدك أن ترتاح، وتترك العمل لي، لأعوّضك عن الكثير من الذي فقدته...

. أنت يا ولدي بحاجة إلى المال لتتزوج... أريد أن أفرح بك قبل أن يسترد الله أمانته.

. بعد عمر طويل يا أبي، وإن شاء الله سترى أولادي وأحفادي.

هزّ أبو أحمد رأسه مراراً، ثمَّ اقترب من ولده، وضمّه بحنان إلى صدره، بينما كانت زوجته وابنته تلملمان حوائج البيت المتناثرة.

كان اللغط قوياً أمام البيت وعند الجيران، اختلطت الأصوات الرعناء بالبكاء والنحيب، وكان ثمَّة صوت شنّفت له أذنا أبي أحمد، وقد هزّ له رأسه مراراً... إنه صوت (الكسّاري) وهو يشدو بشِعر شعبي يثير النخوة والحميّة لدى الآخرين، فيردد كل من كان يعمل معه عبارة يشير إليها عندما ينتهي من إنشادها...

ألقى أبو أحمد بصره إلى السماء... كانت صافية إلا من ذؤابات شائبة، والشمس تبث أطيافها السحرية بين أغصان الأشجار وشقوق الجدران، ليلوّن الغثاء بألوان قوس قزح...

تأمل أبو أحمد النهر والشجر ووجوه المارة، وأصاخ السمع إلى أصوات البلابل المبعثرة على الأشجار، فوجدها لا تقلّ عذوبة عن صوت الكسّاري... لكن نكبات النهر طغت على كل ما هو جميل وعذب وممتع، فأشاح وجهه وخطا خطوات ثقيلة، وقبل أن يبتلعه الزقاق، قال لولده:

. ساعد أمك وأختك في ترتيب البيت يا ولدي، فأنا ذاهب لأرى عمك أبا ياسين ماذا حلّ به هو الآخر، وأساعده إن احتاج إلى مساعدة.

. اذهب يا أبي مصحوباً بالسلامة، وبلّغه تحياتي وأشواقي. إن احتاج إلى مساعدة فأنا جاهز إن شاء الله.

كان الطريق إلى بيت أبي ياسين قصيراً لكنه متعرج وصعب... مليء بالسواقي الصغيرة والحفر الكبيرة...

اتّكأ أبو أحمد على عصا عجراء، ونقّل خطواته بحذر شديد، رغم ذلك كاد يقع أكثر من مرةٍ حتَّى وصل...

كان أبو ياسين يجلس على مصطبة بيته المرتفع، يتأمّل كل من حوله بقلق، وعندما رأى أبا أحمد مقبلاً هبط الدرجات الخمس بسرعة، واحتضنه بلهفة، وأمطره بوابلٍ من الأسئلة:

. طمّني يا أبا أحمد إن شاء الله خفيفة؟

طمّني هل أنتم بخير جميعاً؟

طّمني هل الأصبغة والأصواف سالمة؟

خلّص أبو أحمد جسده النحيل من ساعدي أبي ياسين بصعوبة بالغة، وتمتم بأسى:

. الكل بخير... والأضرار يعوّضها الله.

. ألم ينصحك أبي رحمه الله أن تجعل بيتك على مرتفع كما فعل؟

. بلى والله نصحني، وقد خاب أملي في السدّة التي عملتها (النافعة) والألسنة الصخرية التي امتدت على ضفاف النهر...

. هيا ادخل الآن لنشرب الشاي الأحمر.

. لا. هيا بنا لنطمئن على أبي عدنان المختار...

. المختار مازال يدور على البيوت ليطمئن على أحوال سكانيها. لقد رأيته منذ فترة وجيزة مع أبي طارق وأبي سلطان الجابي... اطمئن سيمرّون عليك، أمَّا الآن فتعال ادخل بيتي لأفضي لك بسرّ.

دخل أبو أحمد والهمّ يتملكه، تسمّرت عيناه في عيني أبي ياسين فرآهما فرحتين...

. أرى البسمة على شفتيك وفي عينيك يا أبا ياسين؟

هل عثرت على شريكة الحياة؟

. شريكة الحياة يا أبا أحمد ستأتي عاجلاً أو آجلاً، أمَّا سبب سعادتي يخصّك ويخصّ كل بيت تضرر من الفيضان.

. أفصح يا أبا ياسين...

. قرّر (علي بك) البارحة أن يعطي لكل صاحب بيت متضرر كيسين من الطحين، وكيسين من البرغل وبعض السكر والشاي السيلاني.

. أهذه نكتة يا أبا ياسين؟

. لا والله إنها حقيقة.

. إذن لك البشارة، أتريد عصيداً أم هبيطاً؟

. الهبيط يا أبا أحمد أرجوك.

. هو لك بعد أن نتسلم المعونة، والآن منك الإذن.

. لا والله لن أسمح لك قبل أن تشرب الشاي الأحمر معي.

احتسى أبو أحمد الشاي القرمزي بتلذذ، وغاصت عيناه في الأسلحة المعلّقة على الجدران، والمتراكمة على الطاولات... كان الوحيد الماهر الحاذق في إصلاح صنوف الأسلحة كافة، والخبير في الذخائر وصناعتها، وقد أدرك أبو ياسين سر نظرات أبي أحمد، فقال له على الفور:

. لولا حاجة الأتراك الماسّة لي لما استطعت أن أعرض بضاعتي في بيتي... انتظرني لحظة لأريك نوعاً جديداً من السلاح... انتظرني...

بخطىً عرجاء سار أبو ياسين إلى طاولة منفردة في أقصى الغرفة ولملم أشلاء مسدس كبير، فركّبها بسرعة مذهلة بعد أن نظّفها بخرقة ملساء، وهرول بها إلى أبي احمد.

. ما هذا؟

. إنه سلاح أحد شيوخ البادية، استعصى عليه، فأعطاني إياه لأصلحه له، ورآه ضابط تركي فعشقه، وعرض عليّ مبلغاً كبيراً من المال لقاء اقتنائه، فاعتذرتُ بحجة أنه لا يعمل، حاول أكثر من مرة، وفي كل مرة تكبر عروضه المغرية، وآخر عرض طلب مبادلته بعشرة مسدسات صغيرة مع ذخائرها، فأقسمت له كذباً أنه يحتاج إلى قطع غيار غير متوفرة ولا أستطيع تعويضها، فرحل مطمئناً ومتحسراً بآن واحد.

هزّ أبو أحمد رأسه، وهو يتأمل وجه أبي ياسين الطيب محدثاً نفسه: والله لو طلب مني ابنتي حميدة لما ترددت في قبول طلبه لأنَّه رجل شريف وأمين وكريم ووطني.

نهض أبو أحمد، وهمّ بإلقاء تحية الوداع، لكن أبا ياسين اعترضه قائلاً:

. بعد صلاة العشاء سنلتقي في مضافة علي بك.

أليس كذلك؟

. لست أدري والله.

. لا. لا... أريدك إلى جانبي لأمر مهم.

. كما تريد إن شاء الله.

# (2)

الشمس عليلة تنثر في الأفق دماءً قانية تنعكس على صفحة النهر الذي سكنت جرائره... الأشجار بدأت تستعيد عافيتها، والزروع طاولت أعناقها بتحدّ، وكل شيء على مد البصر يوحي بالخير والأمل، وكان أبو أحمد يراقب الضوء المذاب في الأفق لحظة الغسق، ويستقبل هواءً بارداً منعشاً يهبّ من النهر محمّلاً بعبير أشجار مسك الليل. أحس بسحر اللحظة يصنع خدراً ناعماً لذيذاً يسري مع الدم في عروقه، فتساءل لِمَ أكتئب وقد قدّر الله ما قدّر؟!

لغط الناس يدور في كل اتجاه حول المساعدات التي وُزعت، ومصدرها، وأهدافها، والغمز واللمز في كل مكان، وكان أبو أحمد يراها مهمّة جداً على عكس الآخرين، وثقته بعلي بك كانت كبيرة، لأنَّه يعرفه وطنياً رغم إسباغ لقب (بك) التركي على اسمه، ويعرف أيضاً أن هذا اللقب يحصل عليه كل مثقف حصل على شهادة عالية من الأستانة، وعلي بك قد حصل عليها وعُيّن بموجبها موظفاً كبيراً في ديوان اللواء...

أشياء كثيرة كانت تثير إعجاب الجميع بعلي بك وفي مقدمتهم أبو أحمد... كان مثقفاً وعالماً لغوياً ونحوياً، يتمثل دائماً في إجاباته بالقرآن الكريم والشعر العربي وبخاصة شعر الحكمة، كما أنه مطّلع على الأحوال السياسية التي تلف العالم بأسره، ومطامع الدول الكبرى بالوطن العربي الكبير، ولا سيما الأجزاء الواقعة تحت الاحتلال العثماني، وكان بقرارة نفسه لا ينفي تخلف الأمة العربية وفي مقدمتها بلاد الشام، وأن لواء الزور قمة التخلف لشيوع الأمية، وهيمنة الفكر السلفي عليه، لكنه رغم كل ذلك كان يرى أن الأتراك أخفّ وطأة من المستعمر الغربي الشرير الذي يتربص بالأمة العربية، وبشمسها الساطعة، وبخيراتها، وموقعها الاستراتيجي، لذلك آلى على نفسه أن يجمع في مضافته العامرة أكبر عدد ممكن من المتنورين وشرائح أخرى من المجتمع ليتم توجيههم نحو الخير والعطاء، وتشكيل خلايا ثورية يقع على عاتقها جنباً إلى جنب مع جمعية العهد السرية التغيير السياسي والاقتصادي والثقافي نحو الأفضل، ومناهضة التخلف والطامعين.

عندما دخل أبو أحمد المضافة وجد عدداً كبيراً من الرجال المشهود لهم بالوطنية والصدق والإيثار قد سبقوه... حيّا الجميع بتحية الإسلام وجلس بالقرب من أبي ياسين وأبي عدنان المختار. سمع الجميع مواعظ الشيخ حسين والشيخ سعيد، ثمَّ تحدث الأستاذ تحسين عن مستقبل الأمة العربية على ضوء المستجدات العالمية، ثمَّ تحدث علي بك عن المساعدات التي تمَّ توزيعها على المنكوبين والمتضررين من الفيضان، وأشاد بالتجار والمزارعين الذين أسهموا بها، ملمحاً عمّا همز ولمز به بعض الناس، مؤكداً أنها خالية من أية مآرب أو أهداف سوى حب الناس والوقوف إلى جانبهم عند الملمات، وتمنى أن يكون ما قدّمه المحسنون كافياً، وأخذ يتأمل وجوه الجالسين... كان أبو أحمد الصباغ يردد في سرّه:

. لتكن من أية جهة كانت، المهم أنها أنقذت أُسَراً عديدة من الجوع والحرمان، ثمَّ همس في أذن أبي ياسين قائلاً:

. لو وزّعوا علينا الألبسة وقليلاً من الزيت لكنّا لهم من الشاكرين.

ضحك أبو ياسين عالياً دون أن يعي، وكان علي بك يراقب المشهد بصمت، فاقترب شيئاً فشيئاً من أبي أحمد حتَّى تنبّه له، فوقف أبو أحمد احتراماً وتقديراً له.

. ما بك يا أبا أحمد؟

تلعثم أبو أحمد، ولم ينبس ببنت شفة، فوقف أبو ياسين وقال:

. إن أبا أحمد كان يقول لي: ليتهم وزّعوا علينا الألبسة وبعض الزيت، ليضاعف الله لهم الأجر.

ربّت على كتف أبي أحمد قائلاً:

. سيكون ذلك غداً إن شاء الله.

دخل المضافة عدد من كبار الملاكين والتجار، فبالغ علي بك في إكرامهم، ووقف لهم كل الجالسين...

كان الجالسون يعرفونهم حق المعرفة، ويعرفون أيضاً كيف نمت ثرواتهم حتَّى أصبح الواحد منهم يملك عدة قرى، لكن الذي يشفع لهم أنهم كرام يبذلون بسخاء إن طلب منهم أحد المتنفذين من ذوي الرتب والألقاب...

قال علي بك:

. لقد جئتم والله في وقتكم، كنت على وشك أن أرسل في طلبكم؟

قال كبيرهم:

. أنت تأمر يا أبا راغب، ونحن ننفذ إن شاء الله.

. الأمر لله وحده، وكل ما نطلبه باسم المتضررين والمنكوبين زيادة الدعم ليشمل الملابس والزيت...

. الملابس والزيت والسمنة والمال أيضاً يا أبا راغب... أريد منك أن تشكل لجنة لتوزيع المساعدات صباح الغد.

. اللجنة مشكلة وهي برئاسة المختار وعضوية أبي طارق وأبي ياسين.

. على بركة الله، وفي الصباح ستجدون ما يسرّكم.

صاح أبو أحمد فرحاً:

. الله أكبر... المال أيضاً؟!

قال علي بك:

. أجل يا أبا أحمد... المال من أجل أن تستعينوا به على الأيام العصيبة التي ستمر عليكم.

تململ أبو ياسين، وتطاول عنق أبي سلطان، وتمتم أبو صادق:

. أيام عصيبة أخرى غير التي مرّت علينا؟!

. أدعوا الله جميعاً لأن يرحمنا ويلطف بنا... يا إخوتي ربَّما لا تعلمون بأن المشفى الوحيد في المدينة به مئات المرضى، وليس لدينا سوى طبيبين واحد حكومي والآخر محلي، ولا يستطيعان القيام بواجباتهما الإنسانية كما يتمنيان، وأفواج المرضى والمنهكين تتهافت عليهما كل يوم...

. مرضى ومنهكون؟! ماذا جرى لنا؟!

. يا أبا صادق يسترها ربك... إخواننا الأرمن الذين هُجّروا إلى دير الزور في محنة، وهم بحاجة إلى عون من الله ومنكم... سيقع على عاتقكم إيواء بعضهم وإطعامهم وإلباسهم، وسأحث عشائر اللواء ورجالاتها الخيّرين على فعل ذلك.

أخفض عدد كبير من الرجال رؤوسهم، وقد وقع هذا الخبر وقوع الصاعقة، فهم يتحسبون لما ستؤول إليه حالهم، وهم في ظل حكم يبغض الأرمن، ويعمد للانتقام منهم لوقوفهم إلى جانب أعدائهم، كما أن التكلفة المادية ستكون باهظة، إضافة إلى عدم سعة بيوتهم وما إلى ذلك...

رفع الرجال رؤوسهم بعد لأي، ونظروا في عيني علي بك ملياً، فهزّ لهم رأسه الصغير بأسى قائلاً:

. أعرف بما تفكرون، والشاعر يقول:

**شاور سواك إذا نابتك نائبةٌ يوماً، وإن كنت من أهل المشورات**

يا إخوتي ما جمعتكم إلا من أجل المشاورة، وأعدكم بأنني وأخوتي الملاكين والتجار لن نتخلى عنكم مهما كان الثمن...

الأرمن شعب طيب، وذكي جداً. يستطيعون التأقلم بأي جو يُفرض عليهم... فكروا جيداً، ولا تخافوا أحداً، وثقوا تماماً بأنكم ستُرزقون بسببهم، وسيهلّ الخير عليكم من كل مكان.

قال كبير الملاكين:

. يا إخوتي لن نبخل عليكم بالمال، سنتكفل بمساعدة من يُؤوي الأرمن، وستصله الإمدادات إلى بيته دون معرفة الآخرين، واعلموا بأننا سنأخذ عدداً كبيراً منهم إلى القرى والبادية، ولن نترك لكم منهم إلا من ترغبون بإيوائه.

قال المختار:

. لكن الخوف من عيون الوالي المبثوثة في كل مكان، وكما تعرفون وراءنا أطفال ويتامى وأرامل وعجزة بحاجة ماسَّة إلى رعايتنا.

قال علي بك:

. أعرف ذلك جيداً، وأعي كل كلمة قلتها يا مختار، وأقول لكم اطمئنوا، فلن يصيبكم مكروه بإذن الله ما دمت حيّاً.

قال أبو ياسين بعصبية:

. أنا ليس لدي ما أخسره، أو أخاف عليه يا علي بك، اعتبرني أول المتطوعين لهذا العمل النبيل.

صاح أبو طارق بحماسة:

. وأنا الثاني بإذن الله.

صاح أبو أحمد:

. وأنا الثالث إن شاء الله.

تعالى صياح الآخرين، ثمَّ وقف المختار قائلاً:

. بإذن الله سنكون عند حسن ظنّكم.

صفق علي بك والحاضرون طويلاً، ثمَّ قال:

. الآن ارتاحت نفسي... بارك الله فيكم، وسنحتفل الليلة بهذه المناسبة السعيدة.

رفع الواقفون والجالسون رؤوسهم عندما فتح الباب، وتمخض عن رجال يحملون أطباق الثريد، وعلي بك يشير إلى أماكن وضعها ويعطي توجيهاته إلى الرجال بجلب المزيد من المرق واللحم...

كان الطعام شهياً، والمضيف كريماً، لم يهدأ طوال الوقت وهو يفتت اللحم ويصنعه أكواماً أمام كل واحد... يضيف المرق على الثريد من آونة لأخرى، ويقدم اللبن وأعناق البصل والفجل، مردداً عبارات الشكر لله.

قال كبير التجار:

. اسمعوا يا إخوتي ما سأقوله: صدقوني لم أكن على ثقةٍ بصدق نواياكم، أمَّا الآن فإنني أرى أمارات الصدق ودلالاته على وجوهكم، وإني باسم زملائي التجار أعلن شكرنا وتقديرنا لما تقومون به من أعمال الخير، وسنبقى دائماً على اتصال مع لجنة المساعدات لمعالجة الأمور المستعصية كلها، وسنضع كل إمكاناتنا في خدمتها، ويجب أن تعلموا أنّ من يتزوج أرمنية له راتب شهري يتسلمه أول كل شهر من اللجنة.

رفع أبو ياسين يديه إلى السماء، وتمتم تمتمات غير مفهومة.

ضحك علي بك، واقترب منه قائلاً:

. أصدِقني القول يا أبا ياسين بمَ دعوت ربك؟

. والله كنت أقول: اللهم ارزقني أم ياسين من بين الأرمنيات، لتشاطرني تعاستي وآلامي وآمالي.

. أمَّا زلت تريدها شقراء زرقاء العينين طويلة نحيلة...

. بلى والله ليتني أحصل عليها...

. اطمئن يا أبا ياسين، فالأرمنيات يحملن هذه الصفات، وأنا على ثقة بأن الله سيهبك إحداهن، وستحمل بالمولود الذي انتظرته طويلاً.

. رباه لا أريد غير ياسين...

ضحك علي بك، والتفت إلى أبي سلطان، وكان يدعو الله خلسة، فقال ضاحكاً:

. وأنت يا جابي المالية يا أبا سلطان ما خطبك؟!

التزمَ أبو سلطان الصمت، ولم ينبس ببنت شفة، ولما صاح به علي بك ثانية، أجاب متلعثماً، وقد أفاق من شروده:

. كنت أدعو الله أن يمنحني الولد الصالح.

اعترض عليه أبو أحمد قائلاً:

. أنتَ تزوّجتَ مرّتين، ولديك سبع بنات فماذا تريد؟ أتريد الزوجة الثالثة؟ لن تكون خِلفتك يا أبا سلطان سوى البنات، ولو تزوّجتَ بأربع.

صاح به أبو سلطان غاضباً:

. لماذا تقطع رجائي بالله يا أبا أحمد؟ والله ليس حباً بالنساء، وإنما حبّاً بالولد الصالح إن شاء الله.

. لكن لديك (سلطانة) وأخواتها، والله إن كل واحدة منهن تعادل عشرة رجال.

. صحيح ما تقوله يا أبا أحمد ولكن الولد غالٍ مهما كثر عدد البنات، فهو من سيحمل اسمي، أمَّا البنت فهي ضيفة وأمانة... إنها ليست لي يا أبا أحمد... أفهمت؟

قال علي بك عندما بلغ التأثر بأبي سلطان مداه:

. أخالفك الرأي يا أبا سلطان... أمَّا سمعت شاعرنا يقول:

**هل الله يرضى أن تُهان لأنها فتاة، وهل أوحت بذاك شرائعُه**
**إلا إنّ خشفاً واحداً لو قنصته بألف غلام، ويكَ ما أنا بائعُه**

والله إن بنتي بنظري قبيلة من الرجال، وعلينا ألا نفرّق بين الذكر والأنثى، لأنَّ ذلك حرام بشرع الله وسنّة رسوله.

قال أبو سلطان خجلاً:

. والله يا أبا راغب أنا لا أفرّق بينهما لو كان عندي الولد، لكنني أريد سلطاناً، ولعله يأتيني من أرمنية.

ضحك علي بك، وقهقه الآخرون، فشاركهم أبو سلطان بالضحك وضرب الكفين ببعضهما.

قال علي بك:

. اطمئن يا أبا سلطان، سيكون لك ذلك بإذن الله.

ثمَّ التفت إلى أبي أحمد، وهمس في أذنه:

. وأنت الآخر، ألا ترغب بزوجة ثانية؟

قال أبو أحمد متنهداً:

. الحمد لله الذي رزقني أم أحمد، فهي ابنة عمي، ولا أرغب بأخرى أبداً، لكن ما أتمناه من الله أن يمنّ على ولدي أحمد بزوجة صالحة، وكما تعرف (العين بصيرة واليد قصيرة).

. اطمئن يا أبا أحمد، سينال مأربه إن شاء الله، وأنا من سيدفع الصِداق وكل تكاليف الزواج شريطة أن يحضر إلى مجلسي معك، فهو رجل جاد ووطني.

تهلّل وجه أبي أحمد بالبِشر، وقال فرِحاً:

. منذ الغد سيأتي أحمد إلى مجلسك، ولا أعرف كيف سأرد إليك الجميل يا علي بك... إن ما تبذله لأجلنا كثير والله.

. أستغفر الله العظيم:

**يجود علينا الخيِّرون بمالِهم ونحن بمال الخيّرين نجود**

التفت الحاضرون إلى أبي صادق الميكانيكي الذي طال شروده. اقترب منه علي بك وقال له بصوت عالٍ:

. إيه يا رجل؟ أين وصلت؟

تنبّه أبو صادق، فابتسم وقال:

. أصارحك القول. كنتُ أحلم بثلاثة رجال مَهَرةٍ في الميكانيك ليجعلوا ورشتي تلبّي طموحاتي.

. اطمئن يا أبا صادق، الميكانيك في دم الأرمن، وستجد الكثيرين منهم، أنا على ثقة من ذلك.

. أريد ثلاثة فقط يا أبا راغب.

اقترب علي بك من المختار، فقال باسماً:

. المختار أبو عدنان سيؤوي عدداً غير محدود من الأرمن، لأنَّ بستانه كبير ورزقه قليل، ربَّما الأرمن سيحيلونه إلى جنة، وأنا على ثقة من ذلك.

. إذا كان هذا رأيك يا أبا راغب، فأنا لها إن شاء الله.

حدّق علي بك في عيني أبي طارق فرآهما لامعتين، تَسرَحان في المجهول. قال صوت خفيض عندما اقترب منه:

. ما لأبي طارق ساهماً شارداً؟ أيفكّر بتجارته أم بوطنه؟!

. تجارتي وسيلة يا أبا راغب وأنت تعرفني جيداً، لكنني فكرت أن أزوّج طارقاً بأرمنية رغم حداثة سنّه.

. سيكون له ذلك إن شاء الله، وأتمنى أن تحضره معك إلى المضافة غداً.

. لكنه ما زال حدثاً!

**فما الحداثة من حلمٍ بمانعةٍ  قد يوجد الحلم في الشبّان والشيبِ**

دعه يأتي إلى مجلسنا غداً، وسنرى رأيه.

. كما تشاء.

. الآن أقول لكم جميعاً:

بارك الله فيكم، وأتمنى من لجنة المساعدات أن تحضر إلى مكتبي في تمام العاشرة من صباح الغد من أجل استلام الأرزاق وتوزيعها على المتضرّرين والمنكوبين.

# (3)

الفرات ينثر زبَدَه كثورٍ هائج قد سقط إعياءً، وعشرات الرجال والفتية سيّجوا شاطئه عند المعبر الوحيد؛ ينظرون بقلق إلى سفن ملآى بالوافدين... ظلّوا في المدى المفتوح أزهاراً تفوح؛ توزّعوا في مفردات الوقت أسئلة تهمي شروقاً بلا أجوبة...

إيه يا نهر المآسي والمحن... نهر الكوارث والنكبات... ماذا تحمل اليوم على سطحك الرجراج؟ أرفق بمن تحمل، افرد جناحيك عليهم، امنع عنهم لفح الهجير وسياط التيه؛ والله ما جاؤوك خائفين ولا طامعين، جاء بهم الظلم ليموتوا أوفياء، أو يعيشوا شرفاء... لقد فقدوا كل شيء إلا الأمل، وهاهم اليوم في رحاب النقاء يتجمّعون... فإلى ماذا ستؤول مصائرهم؟ وإلى أي مدى سينظرون؟!

يا ربّ... إنهم بلا أجنحةٍ فكيف سيطيرون؟!

يا رب... إنهم بلا زادٍ فكيف تُراهم يَحيون؟!

يا رب... إنهم حفاةٌ عراةٌ فكيف يسيرون؟!

كان الواقفون وهم ينظرون إلى السفن التي أخذت تقترب رويداً رويداً يدعون الله أن يحمي الوافدين من كل مكروه، ويتمنون عليه أن يحميهم من كل عينٍ شريرة.

القوارب المدعّمة بأعمدة طويلة وصفائح عريضة لامست الشاطئ برفق... عشرات من الأطفال والشيوخ والنساء وقلّة من الرجال تهالكوا على الشاطئ بلا زاد أو متاع... وجوه مصفرّة، وثياب بالية، وشِفاه يابسة، وعيون دامعة، وتمتمات تتهالك من شفتي شيخٍ طاعن في السنّ:

. يا رب... "قتلوا الرجال وأبقوني...

لا تبعد قدسيّتك عني عند رحيلي...

لا تهدر شرفي . أنا المدين . عند تكفيني...

لا تبخل على روحي بالخلاص يا من لا يخون...

لا تطمس خطوط حياتي المحسوبة عليك في أنفاسي...

لا تمحُ صورة الرحمة في وجوه من أراهم...

ولتسكن معي في قبري...

وليبق زيت نعمتك محفوظاً عندي بعد فناء جسدي..."

تهاوى الشيخ المسكين عندما وطئت قدماه تربة الشاطئ الندية، وهو متشبّث بابنته وحفيدته.

هرع الرجال بنقله إلى المشفى، ونقلوا معه كلّ المرضى والمُنهَكين...

اقترب أبو ياسين من الأم وابنتها وأخذهما إلى بيته.

نظر أبو أحمد إلى ابنه الذي تسمّرت عيناه في وجه فتاة لمّا تتجاوز السادس عشر ربيعاً... شقراء، ذات عينين زرقاوين، وبشرة نحاسية، طويلة، نحيلة، ثوبها ممزّق من أعلى الصدر، وكانت تلملمه بحياء، فتعانقت الأحداق طويلاً...

أيّ عشقٍ توهّج في قلبها؟! وأي سماء توحّدت في مقلتيها؟!

تلفّت يمنة ويسرة بهلع... كان الخوف يمتدّ أملاً حتَّى انتهاءات الوصول... اقترب منها كثيراً. أخذت خفقات الروح تزهو في خارطة الأحلام أقماراً. احتضنت كفّه كفّها، جرّها بهدوء، فتشبّثت برجل كهل ناهز السبعين عاماً؛ أخذه معها دون تردد، وقد عرف فيما بعد أنه جدّها...

أبو صادق الميكانيكي الذي جاء بلباسه الميداني الملوّث بالشحم والزيت مرّ مستعرضاً وجوه الرجال، وكانوا ينظرون إليه بدهشة، وعندما توقّف أمامهم أقبل عليه ثلاثة رجال عرفوا صنعته من لباسه. أشار إليهم أن يتبعوه، فساروا على عجَل، وكأنّهم يفرّون من الموت، أخذهم إلى ورشته الصناعية، فتعانقوا، وعانقوه...

أمَّا أبو سلطان الجابي الذي تأنّق عند حضوره، فقد تعلّق قلبه في أهداب امرأة وجهها شمس من عسل، وفي عينيها ذهول لا يُحتَمل... عندما اقترب منها كثيراً احتضنت طفلها الصغير وعيناها تدمعان... قبّل أبو سلطان طفلها، واحتضنه بحنان، وشبك أنامله بأنامل المرأة وسار بهما إلى بيته وهو يتمتم:

. إن لم أرزَق منها بطفل فسيكون ابنها بمثابة ولدي.

أمَّا أبو طارق فكان ينقّل عينيه، تارةً إلى ابنه طارق، وتارةً أخرى إلى وجوه الفتيات الأرمنيات. أحس بالغبطة عندما تقدّم ابنه إليهن، وزادت غبطته عندما أمسك يد فتاة جميلة ذات عينين عسليّتين ووجه مستدير لوّحته الشمس حتَّى غدا

نحاسياً. يستر جسدها النحيل ثوبٌ أرجوانيّ ممزّق يُظهر بعض مفاتنها، تبث اللواعج شهقة، وتفتح القلب ابتهاجاً. اعتصر طارق يدها الناعمة برفق، وسار بها إلى والده الذاهل، قبّل أبو طارق ابنه، وخلع كوفيّته، ولفّ بها جسد الفتاة، وسار بهما إلى بيته والفرحة تغمره.

أمَّا المختار أبو عدنان فقد واجه الموقف بحذر شديد، ومع ذلك فقد انتقى عدداً من الرجال والنسوة والشيوخ أخذهم إلى بستانه الكبير الواقع في طرف المدينة الغربي.

ثمَّ جاء عدد من رجال الريف فاقتسموا من بقي منهم، وساروا بهم إلى قراهم مسرعين.

كان علي بك مسروراً لكل ما حدث، وقد سارع بمعونة التجار والمزارعين بإرسال المؤونة واللباس إليهم جميعاً. قال مفتخراً بهم:

. الآن صدق الوعد، وحلّت النعمى يا إخوتي... الآن أستطيع أن أفاخر بكم، فكل الشكر والتقدير لكم.

قال المختار:

. لا شكر على واجب، والله لقد ندمتُ لأنني لم أجلب المزيد منهم.

قال أبو أحمد:

. نحن الذين يجب أن نشكرك، فسعادة ولدي لا تقدّر بثمن، ووالله لو أن في بيتي سعة لجلبتُ المزيد.

أمَّا أبو ياسين فكان في غاية السعادة والسرور... قال باسماً:

. وأخيراً جاءت إليّ أم ياسين... ومعها أمها... والله لم أرَ امرأةً بجمالها، لقد فاقت التصور... فتاة شقراء، عندما تنظر إليّ بعينيها الخضراوين أحلّق في سماء الحب، وقوس قزح يلفّني من كل اتجاه... يا إلهي، إنها فتاة خُلقت من سوسن الربيع وأقاحه. زادها البؤس والحرمان جمالاً وألقاً، والخوف والهلع فتنة وروعة.

. ما هذا يا أبا ياسين؟! أنت شاعر والله...

. يا أبا راغب... ستراها وستحسدني عليها.

. لن أحسد أحداً. هنيئاً لك بها.

قال أبو سلطان مرتجفاً:

. أخشى يا علي بك أن يعلم الوالي بما فعلنا.

. لا تخافوا رغم أن الخبر سيصله حتماً.

صاح المختار:

. وامصيبتاه! وماذا سنفعل وقتذاك؟!

ضحك علي بك وقال:

. قلت لكم لا تخافوا. سأتدبّر الأمر في حينه.

ما كاد علي بك يكمل عبارته حتَّى دخل رجل يرتدي لباس الشرطة، وهو من أتباع علي بك، فسلّم على الجميع، ثمَّ همس في أذن علي بك كليمات، هزّ لها رأسه، وقال بصوت عالٍ:

. اذهب إليه، وقل له بأني سآتي إليه بعد قليل.

رحل الشرطي مودّعاً، فتعلّقت قلوب الجالسين وعيونهم في عيني علي بك الذي تغيّر لونه قليلاً، وتحاشى النظر إلى جلسائه.

اقترب أبو عدنان من علي بك كثيراً، وقال بصوتٍ راجف:

. خيراً إن شاء الله!

رفع علي بك رأسه عالياً، وابتسم ابتسامة صفراء، وقال ساخراً:

. لقد وصل الخبر إلى الوالي، وهو يطلبني لهذا الأمر.

. وماذا نفعل الآن؟

. اذهبوا إلى بيوتكم، ولا تخافوا أحداً إلا الله، وأنا سأعالج الموضوع بحكمة.

وقف أبو ياسين متحدّياً وقال:

. أنا على استعداد لأنَّ أفجّر دار الحكومة الآن، وأقتل الوالي وحاميته.

. لا يا أبا ياسين، لا داعي لما تفكّر فيه. الأمر هيّن ولا يستدعي إلا قليلاً من مكر ودهاء.

قال أبو أحمد غاضباً:

. والله إن أرواحَنا فداءٌ لضيوفنا، ولن يستطيع أحد المسّ بهم إلا على جثثنا. نحن الذين نقول لك الآن اذهب إليه ولا تخف، ونحن رهن الإشارة، إن أراد الوالي خيراً فخير، وإن أراد شرّاً فنحن لها.

وقف علي بك شامخاً، وربّت على كتف أبي أحمد قائلاً:

. أصيل يا أبا أحمد، شكراً لك ولكل الحاضرين. اذهبوا الآن، لا أريد أن أتأخر على الوالي، وأحبّ أن أطمئنكم مسبقاً بأنه لن يحدث لي إلا الخير إن شاء الله.

رحل الحاضرون وكأن على رؤوسهم الطير، وكل واحد منهم صار يضرب أخماساً بأسداس... يفكرون بأسوأ الاحتمالات... ماذا ستكون مواقفهم إن أخذوا الأرمن من بيوتهم؟ ماذا سيحلّ بهم؟ كيف سيواجهون الموقف إن أخفق علي بك في محاولته مع الوالي؟

أخذوا يفكرون بعمق، حتَّى إن بعضهم ضلّ طريق بيته، وبعضهم الآخر اصطدموا بالجدران ووقعوا في حفر الطريق وسواقيه...

وبينما كانوا على هذه الحال... كان علي بك يسير بتؤدة متوجّهاً إلى دار الحكومة، حيث الوالي ينتظره على أحر من الجمر.

# (4)

كان الوالي التركي في حالة هياج شديد، يصرخ كل آونةٍ:

. صالح... صالح.. تعالى إلى هنا.

يدخل الشرطي صالح، فيمسكه الوالي من رقبته النحيلة قائلاً:

. هل ذهبت حقاً إلى علي بك؟

. نعم يا سيدي، وقال لي بأنه سيحضر في الحال.

. لِمَ لم يأتِ حتَّى الآن؟

. كان في مضافته عدد من الوجهاء، ولكنه سيأتي كما قال لي.

. ابقَ في الغرفة الثانية مع المُخبر شريف، ولا تغادرها أبداً.

. كما تريد يا سيدي.

أخذ الوالي يحدّث نفسه غاضباً، فالمخبر السرّي كان سيّئ السيرة رغم وعوده له بأنه سيغيّر من سلوكه وعطائه لينال الرضا، وكان يخشى كذب هذا المُخبر وتهويله لهذا الأمر، وإعطاءه أكبر من حجمه، فأراد أن يقف على الحقيقة من علي بك، فهو أدرى منه بهذا الأمر، وعندما دخل علي بك إلى الوالي خفّ هيَجانه، واستقبله بترحاب، فهو يحبّه كثيراً ويثق به.

أشار إليه أن يجلس قبالته، ثمَّ أخذ ينظر إليه بعينين ناعستين قائلاً بهدوء:

. أين ذهبت قافلة الأرمن يا علي بك؟

. قسم كبير منهم في المشفى، وعدد منهم توفّاهم الله، وآخرون توجّهوا إلى حلب.

. قيل لي إن عدداً من رجالات المدينة والريف تقاسموهم.

. ثلاثة رجال بحاجة ماسَّة إلى الزواج انتقوا ثلاث فتيات، ورجل بحاجة إلى عمال ميكانيكيين أخذ ثلاثة رجال، وعدد من رجال الريف انتقوا منهم عمّالاً زراعيين، وكلّ ذلك تمَّ بمعرفتي.

. كيف يا علي بك؟!

. أنا كفيلهم، وأنت تعرف يا مولاي غلاء المهور وفقر الناس، وندرة العمال الصناعيين والفنيين الزراعيين، والأرمن قد حلّوا لنا هذه الأمور المستعصية.

صاح الوالي بالحرس كي يُدخلوا المُخبر شريف على الفور.

دخل شريف فحيّا الوالي ونكس طرفه أمام نظرات علي بك. اقترب منه الوالي وعرك شحمة أذنه بقوة، قائلاً:

. أنت قلت لي إنك رأيت الرجال الذين تقاسموا كلّ القافلة، أليس كذلك؟

نظر شريف إلى علي بك، فغمزه بطرف عينه، فقال:

. ليس كل القافلة يا سيّدي...

. أنت تكذب إذن؟

. الرحمة يا سيّدي.

. سأودعك السجن أيها الكاذب.

تدخّل علي بك على الفور راجياً العفو عن شريف هذه المرة، فعفا عنه شريطة أن يكون صادقاً في نقل الأخبار، فوعده شريف بذلك.

. علي بك... أريد منك أن تُشرف بنفسك على كلّ قوافل الأرمن الآيبة خلال الفترة القادمة، وتعمل على ترحيلها إلى حلب دون توقّف في المدينة.

. لكن من واجبي أن أنقل المرضى إلى المشفى.

. انقل المُنهكين جداً فقط.

. كما تشاء... هل تريد شيئاً آخر؟

. لا... شكراً، وأنا آسف لإزعاجك.

. أستغفر الله العظيم، أنت تأمر في أي وقت تشاء.

. لم تقل لي من هم الرجال الذين أخذوا من الأرمن؟

. أبو سلطان الجابي، فهو يريد الولد يا مولاي، وأبو أحمد الصبّاغ انتقى عروساً لولده أحمد، وأبو ياسين انتقى أم ياسين، وأبو صادق الميكانيكي انتقى ثلاثة عمال ميكانيكيين لورشته، وعدد من شيوخ القبائل انتقوا عمالاً زراعيين لمزارعهم.

. خيراً إن شاء الله.

كان علي بك مسروراً جداً لهذه النتيجة مع الوالي، وعندما خرج من مكتبه سار متّجهاً إلى بيته، فلحق به المُخبر شريف، وتذلّل أمامه شاكراً تدخّله، وإعفاءه من السجن. نظر إليه علي بك بعينين غاضبتين، وهو في الحقيقة الذي يجب أن يشكره لأنَّه لم يقل الحقيقة، وإنما قصد بهذه النظرة إخافته من أجل ألا يتعوّد على نقل أخبار المناضلين والمحسنين إلى الوالي لقاء دريهمات معدودات.

أدرك شريف سرّ نظرات علي بك، فقال بصوتٍ خفيض:

. لست أدري ماذا جرى لي عندما قلت له بأن القافلة كلّها قد اقتسمها رجالات المدينة والريف؟ وعد مني ألا أشي بمناضل أو محسن بعد اليوم، بل سأعمد إلى مساعدتهم بكل ما أستطيع.

. هذا ما أطلبه منك يا شريف، ووعداً مني إن احتجت إلى أي شيء فسيكون لك بإذن الله.

كانت ليلة ثقيلة لم ينم خلالها علي بك إلا قليلاً... ثمّة كوابيس مرهقة كانت تتعاوره من حين لآخر. تشتّتَ فكرُه بين متاهات الظنون ومسارب الشك... بين الحاضر والمستقبل... بين الواقع والخيال... قدح زناد فكره مراراً، فرأى، ويا لهول ما رأى!

رأى الحاضر يحتضر، والمستقبلَ مرعباً... رأى الواقع دفلى والمستقبلَ علقماً.. شطّ به الخيال إلى رؤى وأوهام وهواجس وعواصف وزوابع، كان يتهاوى بينها لا يلوي على شيء، ولا حول له ولا قوّة... هرش جلدة رأسه الصغير، ومسح أنفه الدامع، ورتّل أبجديّةً عشقها منذ الصغر وتربّى عليها، وأقسم على الوفاء لها مهما كان الثمن. كان أبوه يقول له دائماً: (الشجرة المُرّة يا ولدي لو طليتها بالعسل لن تثمر إلا مُرّاً).

كان والده . رحمه الله . يحثّه على حبّ وطنه والإخلاص له، وأنّ المحتل مهما كانت مواقفه إيجابية فوجوده سلبي.

كان يطلب منه حبّ الناس والإحسان إليهم قدر استطاعته مردّداً على مسامعه أيضاً ما قاله الشاعر:

**أحسِن إلى الناس تستعبد قلوبَهمُ  فطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ**

فالكرم والسخاء أحب الصفات إلى الله تعالى، وهما هبتان يهبهما الله لمن يصطفي من عباده...

كان والده مدرسةً، يردّد على مسامعه صباح مساء الفضيلة والخير والعطاء حتَّى آخر لحظة من حياته...

اقتحم خلوتَه حارسُه الأثير، وناوله وريقةً صغيرة، قرأها علي بك بتمعّن وشردت عيناه...

الأخبار السعيدة بتحرّك الجيش العربي من الحجاز إلى الأردن، ومن الأردن إلى سورية، والحركة الوطنية تلحّ عليه أن يُجهر بالعداء للولاة والسلاطين العثمانيين، وأن يدعو الشعب إلى الثورة.

كان يرى ضرورة التمهّل والعمل بسريّة وكتمان، هذا ما طرحه جهاراً فاتّهمه بعضهم بأنه مع الأتراك قلباً وقالباً...

يا لأخلاق الناس الضيّقة! يا لحصاد ألسنتهم! أبعدَ كلّ ما قدّم يُشَكّ بوطنيته وسلوكه... تمتم عليٌّ بحزن:

**إذا أهل الكرامة أكرموني فلا أخشى الهوان من اللئامِ**

كان علي بك يعرف أكثر ممَّا يعرف الآخرون... إنه يعرف الوالي جيداً منذ أيام دراسته في الآستانة، وكانت له مواقف إيجابية من العرب، وحتى من الأرمن، وكان يأسف لِما جرى لهم في /مركدة/ وغيرها، ويلحّ على رحيل السوقيات فور وصولها دير الزور خوفاً من غضب رؤسائه، وكان عليّ يقدّر مواقفه جيداً، ولو كان غير ذلك لتغيّر كل شيء... هذا ما كان يجهله رفاقه.

بعد شروق الشمس بقليل، كان المختار وأبو أحمد الصبّاغ وأبو صادق وأبو سلطان وأبو ياسين أمام بيت علي بك...

لم يستطيعوا النوم، ولم يهنؤوا بمن أخَذوا. القلق والهواجس والظنون تتناهبهم من حين لآخر...

اتّفقوا فيما بينهم على المجيء إلى بيت علي بك بعد شروق الشمس، فاجتمعوا عند بوابة الحديقة الملأى بالزهور والرياحين...

كان علي بك يقِظاً يتنقل من شجرة إلى أخرى، يشمّ الورد، ويرشّ الماء، ويبعد الیباس إلى ركن قصيّ...

كانوا ينظرون إليه باحترام وتقدير، وهو منهمك في العمل... حتَّى إذا ما انتهى وجلس على كرسيّه يحتسي الشاي تنحنحوا بصوت عالٍ.

وقف علي بك وأمرهم بالدخول، فدخلوا وهم منكّسو الرؤوس...

. أهلاً بكم... سنتناول طعام الفطور معاً.

قال المختار:

. نحن لم ننم ليلتنا يا أبا راغب. أرجوك قل لنا ماذا سنفعل؟

سقط أبو سلطان عند قدمي علي بك ناشجاً:

. أرجوك يا أبا راغب، لقد أحبَّها قلبي والله، ولن أقوى على فراقها. أتوسّل إليك... ساعدني.

مدّ علي بك يده، ورفع جسد أبي سلطان المتهالك، ونظر في عيون الآخرين، فوجدها كابية لا لمعان فيها ولا ضوء، فقال بنبرة قاسية:

. إذاً ستتخلّون عن المقاومة؟!

قال المختار دَهشاً:

. وما دخل المقاومة بهذا الموضوع؟!

. إما أن تسلّموا الأرمن، أو تقاوموا الأتراك.

سكت أبو أحمد الصباغ، ولم ينبس ببنت شفة، أمَّا أبو سلطان فقال:

. أنا سأسلّم ما أخذت عندما أعجز عن المقاومة.

قال أبو ياسين بعد تفكير عميق:

. والله سأودع مخزناً من الرصاص في قلب من يقترب من أم ياسين أو من أمها.

أمَّا أبو صادق فقد أخرج مديةً طويلة من جيبه، ورفعها عالياً، وقال بأعلى صوت:

. أنا لها يا أبا راغب.

نظر علي بك في عيني أبي أحمد الصباغ قائلاً:

. لم تقل شيئاً يا أبا أحمد!

تنهّد أبو أحمد، وأطلق زفرةً من أعماقه، ثمَّ قال:

. والله لن يأخذوا زوجة ولدي أحمد إلا على جثتي.

ضحك علي بك طويلاً، وقال:

. هنيئاً لكم ما أخذتم، ولن يستطيع أحد أن يسلبكم الأمانة التي أرتضيتم حملها بصدق. الأرمن يا إخوتي أصبحوا جزءاً منا، ولن تستطيع قوّة غاشمة أيّاً كانت اقتلاعهم من أرضنا، أمّا بالنسبة للوالي فقد أقنعته بأنّ ما أُخذ من القافلة قليل، وذلك لشدّ احتياجات من لا يملك مهراً أو عمالاً، وقلت له إن من أخذوهم أعرفهم وهم بكفالتي.

هدأت النفوس قليلا، ما لبث أن تنهد المختار.

. ما بك يا أبا عدنان؟

. لم تقل لي من وشى بنا يا أبا راغب؟!

. لم يكن تركياً، ولا ديرياً أصيلاً.

. من هو أرجوك؟

. لا يهمّكم اسمه، فهو من منبتٍ سيئ على كل حال، وأرجو ألا تلوثوا أنفسكم به، لقد هديته إلى سواء السبيل، وأرجو أن يكون صادقاً بما وعد.

التفت الرجال على صوت جلبة بالقرب من الحديقة...

كان ثلاثة رجال من الخيّالة، وعندما أومأ لهم علي بك عرفوهم جيداً، إنهم من كبار التجار...

قال علي بك:

. الآن طاب طعام الإفطار...

دخل علي بك بيته، وقد جلس الحاضرون جميعاً وما هي إلا دقائق، حتَّى كان الإفطار جاهزاً. تناولوه بارتياح وحمدوا الله كثيراً.

قال علي بك لكبير التجار:

. لِمَ لم يأتِ أبو طارق معكم؟ ما أخبار ابنه؟

. أبو طارق يعيش الفرحة بعد أن تزوَّج ابنه من الأرمنية، وهو سعيد جداً بها، وليتك رأيت العروس بعد أن ألبسوها أجمل اللباس، وزيّنوا يديها بالذهب. كل من رآها قال: هذه ملاك وليست من البشر. هنيئاً لطارق بها!

. كنتُ أتمنى أن يعيش الفرحة هؤلاء الرجال الذين تراهم أمامك... إنهم لم يناموا ليلتهم خوفاً ورعباً.

. ماذا تقول يا أبا راغب؟

. إن ثقتهم بي ضعيفة.

قال المختار بصوت عالٍ:

. لا والله... إن ثقتنا بكَ يا أبا راغب أكبر ممَّا تتصوّر.

قال كبير التجار:

. يا إخوتي، لتتعزّز ثقتكم بنا أيضاً، أرجو أن تأخذوا...

ومد يده في جيبه، وأعطى لكل واحدٍ منهم صرةً، ثمَّ قال:

. في كل صرّة عشرون ليرة رشادية، هي دفعة أولى لكم لتساعدكم على تحمل مسؤولية الأمانة التي بين أيديكم.

لم تكن الحديقة تسع فرحتهم. دسّوا الذهب في جيوبهم، واستأذنوا بالانصراف.

قال علي بك قبل أن يغادروا:

. أوصيكم يا إخوتي بحفظ الأمانة، والدفاع عنها أمام أي خطر يتهدّدها، تزوّجوهم على سنّة الله ورسوله، واكتبوا وثيقة بذلك، واجلبوها لي كي أُمهرها بخاتمي وتوقيعي.

قال المختار:

. سنفعل ذلك هذا اليوم إن شاء الله، واطمئن فوالله الذي لا إله إلا هو ستكون رقابنا فداءً لهم...

وخرج كل واحد إلى بيته والفرحة تغمرهم، بينما بقي علي بك مع التجار الثلاثة يتداولون شؤون البلد، ومستلزمات المرحلة القادمة.

# (5)

كان أبو أحمد الصباغ في غاية السعادة لأنَّه وجدها على وجه ولده أحمد، وكانت أم أحمد تطلق زغاريد الفرح من آونةٍ لأخرى، وتقوم بحركات راقصة متمايلة على أبي أحمد، الذي يهمّ كلّ آونةٍ للإمساك بها، إلى أن ساعدته آخر مرّة، فوقعت عمداً في أحضانه... الفرح قصائد عشق لا تستكين... أغصان من ياسمين تتدلّى في فضاء الروح... بيادر فصول خضراء... مهرجان من الفتنة واللذة يغطي كل مساحات القهر والحرمان...

قال لها، والنشوة تغمره:

. أتدرين يا امرأة كم أنا سعيد؟!

لامست فخذه برفق، وتنهّدت قائلة:

. أنا والله أكثر منك، الحمد لله الذي منّ علينا بالسعادة التي كنّا نحلم بها منذ سنين طويلة...

. الله كريم يا أم أحمد... منذ زمن طويل، وأنا أقول لك: إن الله لن ينسانا لأنَّه يعلم ما تخفي الصدور...

. قل لي يا أبا أحمد... ماذا ستفعل بالذهب؟

. سأشتري المحل المجاور لمحلي، وأسجّله باسم أحمد، وسأشتري له كل مستلزمات المصلحة حتَّى يظل سعيداً، وسأبني له غرفة في البيت كي يأخذ حريته، ويعرف أنّ له بيتاً، وأنه أصبح صاحب أسرة.

. نِعمَ الرأي والله.

تشاغلت أم أحمد بعقص ضفيرتها، ثمَّ اقتربت من زوجها، وأخفضت رأسها بحياء. أدرك أبو أحمد أن أمراً ما يدور في خلدها، فأمسك رأسها وقبّله، وقال بصوت يشبه الهمس:

. ماذا يدور في هذا الرأس الجميل من أفكار يا ترى؟

أمسكت أم أحمد يد زوجها، وقبّلتها بحنان، وقالت:

. أتعرف يا أبا أحمد، لقد تملّكتني الغيرة عندما ذهبت إلى قافلة الأرمن مع ابنك... خفت والله أن تستأثر بواحدة من جميلاتهنّ.

ضحك أبو أحمد طويلاً، وقال:

. الصراحة يا امرأة، أنّهن يُسِلن اللعاب. ماذا لو رأيت ابنك وهو يمسك بيد أجملهنّ؟ وكيف هرع أبو سلطان متلهّفاً إليهنّ؟ وكيف وثب أبو ياسين كالنمر إلى حسنائه؟ وكيف انتقى ابنُ أبي طارق التاجر فتاة رائعة؟ وكيف وكيف؟ والله لولاك يا ابنة عمي لَما قصّرت، ويجب أن تعلمي أنه لو أعطوني أجمل الجميلات في العالم، ما قبلت بها إكراماً لعينيك...

طوّقت أم أحمد عنق زوجها بيديها النحيلتين، وغمرته بوابل من القبلات التي لها خفق كخفق اليدين بالعجين، معتذرة لأنَّ الأرمنيات فائقات الجمال، والغيرة طبع عند النساء.

أغلقت أم أحمد نافذة الغرفة عندما هبّت نسمة محمّلة بالغبار، وفتحت الباب تستطلع الجوّ تارةً، وغرفة أحمد تارة أخرى، ثمَّ جلست تراقب زوجها وهو يقلّب صفحات دفتر جيبه، يحسب ما له وما عليه، فأغلقت الدفتر بهدوء، ونظرت في عينيه الواسعتين، فابتسم وقال:

. أين ولدنا أحمد؟

. إنه في غرفته... هنيئاً له.

. كيف رأيت زوجته؟

. إنّها جميلة آسرة... عندما استحمّت، ولبست ثيابها الجديدة، ظننتها ملاكاً هبطت علينا من السماء... يا إلهي ما أجملها! وردةٌ فوّاحة بالعطر... حمامة من نور والله.

. اللهم تمّم عليه بالخير والبركة، وارزقه الولد الصالح.

. آمين يا رب العالمين.

وأين حميدة؟

. عند خالتها تساعدها في جرش البرغل.

. أعرفت اسمَ زوجة أحمد؟ لقد نسيته والله.

. وأنا كذلك، سأطلب من أحمد أن يغيّر اسمها باسم يسهل علينا حفظه.

. أخشى أن يزعجها ذلك يا أم أحمد. أرجوك... لا تلحّي عليه بهذا الطلب.

. لا عليك... انظر الآن... انظر... هاهي مقبلة إلينا... قم رحّب بها.

نهض أبو أحمد، وزغردت أم أحمد طويلاً عندما أقبلت زوجة أحمد برفقة زوجها...

كانت كملاك النور... شعرها الأشقر يتهادى على منكبين كأنه شلال من الضياء... عيناها الزرقاوان كأنهما بحيرتان تخفيان اللآلئ والمرجان؛ تتثنّى في مشيتها كالخيزران، ووجهها المشرق يكتنز بالحب والحنان... يا للجمال كيف يصنع بالقلوب والعقول!

صاح أبو أحمد بأعلى صوت:

. صلّوا على النبي...

ردّدت الشفاه أعذب الصلوات وأسماها...

احتضنتها أم أحمد بلهفة، وكأنها آيبة بعد طول غياب.

أجلستها بينها وبين زوجها، وأخذت تلامس شلال شعرها الأشقر الجميل بحنان. ضحك أحمد وقال:

. لكنني أغار عليها منكما يا والديّ...

قال أبوه:

. نسيت اسمها يا ولدي... ما هو؟

. (هاصميك) يا أبي.

. ماذا يعني هذا الاسم لديهم؟

. يعني (الياسمين) كما علمت.

. إذن دعنا نسميها ياسميناً، وأبعد هذا الاسم الذي لا يحفظ.

. كما تريد يا أبي، رغم أنهم يعتزّون بأسمائهم.

قبّلتها أم أحمد ثانية وثالثة، وصاحت بأعلى صوت:

ياسمين، يا أجمل ورد البساتين

يا أغلى ريحانة بين الرياحين

يا ربّ احفظها، قولوا آمين

وزغردت طويلاً، وتمنّت على ابنها أن يحافظ عليها.

. والله يا أمي، إنها في قلبي وروحي وعينيّ، فلا توصياني بها.

. علّمها يا أحمد العربية.

. بدأت تتقبّل ذلك، وأصبحت تنطق بعدّة كلمات عربية، وخلال شهر أو أكثر قليلاً، ستتحدّث معك كأي امرأة ديرية... إنها ذكية جداً، واستيعابها سريع، وتعرف ماذا أريد من حركة شفتيّ.

. بارك الله فيك يا ولدي، لكن كيف أصبح جدّها؟

تنهّد أحمد وقال متألماً:

. إنه مريض جداً. السلّ يفتك برئتيه، ولا أعتقد أنه سيشفى.

. المهم يا ولدي أن تجعله يشرب الدواء بانتظام، والشافي هو الله.

قال أبو أحمد:

. والله يا ولدي، لو أعرف أن مرضه يُشفى لأعطيتك الذهب من أجله.

. يا والدي، الطبيب نفسه قال لي أن لا أمل من شفائه، والعلّة أنه طلب منّي عدم ملامسته لئلا أصاب بالعدوى.

. وكيف تصرّفت؟

. لم ألمسه، ولكنّ زوجتي متعلّقة به إلى أبعد مدى، إنها تطعمه بيدها، وتغسله، وتُلبِسه، وتُشرف على نظافته حتَّى ينام، غير آبهة لتعليمات الطبيب، ولا أستطيع منعها... إنه جدّها الذي ربّاها منذ الصغر في حِجره يا أبي.

قالت أم أحمد مشفقةً:

. دعها يا ولدي تقم بواجبها، أنت لا تعرف وفاء الأرمن وإيثارهم، والأعمار كلّها بيد الله.

دخلت حميدة فرحة على غير عادتها، فتنبّه والداها، وعجبا لتغيّر أحوالها بعد أن كانت كئيبة لا تمزح، ولا تضحك، ولا تكلّم أحداً إلا عندما تُجبر على ذلك...

تنبّهت حميدة لحالها أمام والديها وأخيها، فوأدت فرحها في قلبها، وتجهّمت فجأة...

ناداها والدها، وقال لها بدهشة:

. لمَ تغيّرتِ يا حميدة؟! ماذا أصابك يا بنتي؟!

تلعثمت حميدة وتعثرت في الإجابة؛ تلوّن الوجه الجميل بحمرة الخجل وعقدة الخوف؛ ارتجفت الشفتان المكتنزتان ارتجافةً مريعة، وترقرقت دمعتان على الحدقتين، فانسابتا على الوجنتين بحنان...

اقتربت منها أمّها، وضمّتها برفق فتنفّست الصعداء...

طلبت أم أحمد من زوجها الخروج من البيت لشراء بعض الحاجات، فلبّى طلبها على الفور،وجلست حميدة مع أمّها وأخيها وزوجة أخيها...

ساد الصمت هنيهة... كل العيون ترنو إلى وجه حميدة، وكانت حميدة تغضّ الطرف بحياء، وقد أرهقتها الكوابيس... حطّمت أم أحمد قيود الصمت قائلة:

. ما أخبار خالتك يا حميدة؟

. إنها بخير يا أمي، وتسلّم عليك كثيراً.

. وابن خالتك سامي، هل كان هناك؟

تملّك الحياء ثانيةً وجه حميدة، وأخفضت بصرها، ولم تتكلّم.

قرصتها أمها من فخذها، فقالت بصوتٍ خفيض:

. نعم، كان في غرفته يقرأ.

قال أحمد باسماً:

. أتعرفين يا أختاه أنّ سامي يحبّك كثيراً، وكلّما كان يفاتحني بموضوع خطبتك، كنت أقول له: تريّث حتَّى تُنهي دراستك، وكان يحاول جاهداً إقناعي بأن الزواج لا يعيق الدراسة، بل على العكس يكون عاملاً محفزاً ومشجّعاً. قلت له مرةً: لِمَ لا تنتقي فتاة أرمنية جميلة، وتُنهي هذا الموضوع؟ ولكنه صرخ بوجهي قائلاً: إن لم تكن حميدة لي، فلن أتزوج طول العمر...

قالت أم أحمد:

. يا ولدي، سامي شاب ناضج، وأصيل ابن أصيلة، والله لن تكون حميدة إلا له، فليطمئن، ولتطمئن حميدة.

انسحبت حميدة باسمة، فقال أحمد:

. لكن يا أمي، أخشى على زواجهما ممَّا لا تحمد عقباه، لأنَّ سامي لا يملك شيئاً.

. كيف لا يملك شيئاً يا ولدي؟ إنه يشتري الحبوب بأنواعها، ويبيعها، وداره واسعة، ولا أحد يؤنس وحدته سوى أختي.

. يا أماه... عدّة مرّات يخسر سامي في بيع الحبوب، فتضطّر أمّه لأنَّ تبيع من ذهبها سداداً لديونه، إنه لا يعرف البيع والشراء جيّداً، وهو يدرس الآن، فلننتظر حتَّى يُنهي دراسته ويحصل على وظيفة، وبعدها لكل حادث حديث.

. لا يا ولدي. أنا أعرف ما لا تعرفه أنت... سامي يحب حميدة حبّاً ملكَ قلبه وعقله، وأخشى إن لم يتزوّجها أن تفقد أختي وحيدها... كان كلّما عصف به الشوق، وتقاذفته الهموم، يلحّ على أمّه لترسل في طلب حميدة بحجة مساعدتها، وكان لا يراها إلا أمام أمه، فتبدّد كآبته، وتنزاح كل همومه عندما يراها... هذا هو الحب الصادق، واعلم أنني أعطيت حميدة خادمة لأختي، ولا أريدك أن تعارضني.

. لكن والدي عندما فاتحته بالموضوع قال لي:

سامي ما زال صغيراً.

. يا ولدي، الصغير بنظر أبيك من لا وظيفة لديه أو عمل مربح.

. معه حق يا أمي.

. لا يا ولدي... الحق أن يتزوّجا بأسرع وقت. إنّ موقفك وموقف أبيك سبّبا لها الكآبة... يا ولدي، حميدة تختزن في قلبها حباً كبيراً صادقاً وشريفاً لسامي، وتتمنّى من كل قلبها أن توافقا، أنت وأبوك حتَّى ترتاح نفسياً وعاطفياً... كانت أختك يا أحمد تتمتم سرّاً وعلانية: آه لو وافقا على سامي لعشت سعيدة... هي لا تعرف ما يجول في خلدكما سوى أمر واحد... إنها تخاف أن تزوّجاها من رجل آخر، وكانت كلّما فكّرت بهذا الأمر تنفعل، وتتغيّر ملامحها، وتتشنّج، وتردّد دون سابق إنذار: (وقتها، سأقتل نفسي، أو ألقي بجسدي في الفرات، ولن أكون لغير سامي أبداً) أرجوك يا ولدي أن تقدّر مشاعر أختك حميدة... لا أريد أن أفقدها أبداً.

نظر أحمد في عيني أمه، فرأى دمعتين تنسابان في أخاديد وجهها، فعانقها قائلاً:

. وعداً مني يا أماه أن أكون من هذه اللحظة إلى جانب أختي حميدة، وسأقنع أبي بضرورة زواجها من سامي، لأنَّ بيتنا لم يعد يتّسع إلا للفرح.

احتضنت أم أحمد ولدها، وعانقته، وزغردت طويلاً، ثمَّ قامت، ورقصت، وأخذت تُميل جسدها تارة إلى ابنها وتارة أخرى إلى زوجته، وتملّك الجميع شعور بالغبطة والسعادة أكثر من ذي قبل.

كان أحمد أكثرهم سعادة. يتأمل وجه زوجته الملائكي بذهول وعيناه تلتهمان عينيها الزرقاوين بشبق... قال لأمه:

. أمّاه... هل رأيت طوال عمرك أجمل من ياسمين؟

فتجيبه أمه بالنفي، مطلقة التعويذات والدعاء كي يحرسها الله ويحميها من كل مكروه.

فجأة تجهّمت الوجوه، وعلَتها كآبة خرساء، عندما تسلّل الغبار من شقوق النوافذ والأبواب...

صرخت أم أحمد بأعلى صوتها:

. العجاج... العجاج... أين أنت يا أبا أحمد الآن؟

بسرعة مذهلة نثر العجاج الأصفر أحشاءه حتَّى أصبحت الرؤية عسيرة، وما لبثت السماء أن خلعت رداءها، وارتدت ثوباً برتقالياً، ثمَّ أرجوانياً، ثمَّ تملّكت العتمة أديم السماء، وأظلمت الدنيا في عزّ الظهيرة...

دخل أبو أحمد مسرعاً، وهو يصيح:

. أغلقوا الأبواب والنوافذ جيداً. ضعوا على وجوهكم مناشف مبللة بالماء... سدّوا فتحات آذانكم وأنوفكم بالقطن المبلل.

قفزت هاصميك بسرعة وهي تصيح: جدّي... جدّي. وصعدت إلى غرفته غير مكترثة بنداء زوجها، فوجدته يسعل سعالاً حادّاً متواصلاً.

تشبّثت هاصميك بأذيال جدّها الهرِم الذي ما انفكّ سعاله المدمّى ينثر دمه في كل اتجاه... قال لها:

. لا تخافي بنيّتي... أموت وأنا مطمئن عليك، فأنت في مأمن من كلّ شرّ.

. جدّي... لن تموت الآن... أريدك إلى جانبي. جدّي... لا ترحل وتتركني... ابقَ أرجوك.

اجهشّت هاصميك بالبكاء، واحتضنت جدّها، وبلّلت أخاديد وجهه بالدموع.

. تشجّعي يا بنتي... لن أعيش طويلاً، وعليك أن تتذكّري دائماً وأبداً أرض الآباء والأجداد، وإخوانك المشرّدين... تذكّري أمّك وأبيك وإخوتك الذين لا يعلم إلا الله مصيرهم... تشجّعي هاصميك، وردّدي ما قاله شاعرنا "أواديك":

**(يا بلد الآباء والأجداد... يا ذا الرأس الشامخ**
**يا من تلفظ بأسلوبك البليغ لغتي الأرمنية القديمة**
**العذبة النابعة من القلب... يا وطني)**

. لا تمت الآن يا جدّي... ستعيش بإذن الله... سأجلب لك الطبيب الآن...

. انتهى كلّ شيء يا بنتي، لن يفيدني الطبيب بشيء ولم تُجدِ كل الأدوية التي أعطاني إيّاها، آه ليتني أحظى برؤية أمّك وخالاتك... ليتني أرى أولادي... كان الله في عونهم جميعاً... إن جاؤوا يا بنتي إلى هنا، فعانقيهم نيابة عني، وبلّغيهم تحيّاتي.

بكت هاصميك طويلاً... إنها لم ترَ أمَّها وأخواتها منذ زمن طويل، فهي عندما سيقت كانت في بيت جدّها الذي يبعد مئة كيلومتراً عن بلدة أهلها... أرادت أن تدرس عند جدّها منذ أن كانت صغيرة، وبقيت في حِجره حتَّى سيقت معه.

كانت زمجرة العواصف في صدرها أعتى من العواصف التي خلّعت الأبواب والنوافذ، لتطمر البيت بمن فيه وحلاً أحمر تقذفه السماء دون انقطاع...

صاحت من دون وعي:

. يا ربّ ساعد جدّي وارحمه... يا ربّ كن معنا ولا تكن علينا... يا ربّ ليس لنا غيرك.

وعندما تلفتت إليه ناشجة، كان في رحلته السرمدية يلوّح بيده المعروقة لظلال تراءت له، فصاحت بأعلى صوت:

. ابقَ معي يا جدّي... لا ترحل أرجوك...

وانكبّت عليه تبكي بدموع مدرارة، حتَّى غفت على صدره المهدّم، ولم تفق إلا على ساعدين قويين، وقد حملتاها إلى السرير.

نظرت بذهول، وإذا بأحمد ينشج بصمت. اقترب منها، وجفّف دموعها بمنشفة نظيفة، وعانقها بحنان، فتمتمت:

. أريد جدّي يا أحمد.

. جدّك اختار الله... إنه استراح يا حبيبتي.

. لكن... لِمَ رحل عنّا الآن؟

. هذا قضاء الله وقدره، وكلّنا على هذا الطريق.

. لكنه جدّي وأبي وأمي وأخي يا أحمد... إنه من ربّاني، وعلّمني وهذّبني...

. سأعوضك يا حبيبتي بإذن الله عن حنانه وعطفه وحبه الكبير، فلا تحزني.

. لن تستطيع يا أحمد.

. سأبذل يا حبيبتي كلّ جهد، ولن أبخل عليك بشيء إن شاء الله.

بكت هاصميك طويلاً، وغابت في سبات عميق.

السماء مازالت تمطر وحلاً أحمر يلطّخ الوجوه والأجساد، ويرسم خرائط المنيّة على الجدران والنوافذ والأشجار، وعندما اختفى المطر بانت من جديد سحابة صفراء، ثمّ اتّسعت حتى كادت تبتلع السماء.

تلاشت ذبالات المصابيح، واختفت الوجوه بين جدران تفوح منها رائحة العفن..

المآذن تكبر كلّ هنيهة، والشيوخ يرفعون أكفّهم إلى السماء، يدعون الله ليقشع عنهم هذه الغمّة. لكن الغمّة لم تنقشع إلاّ بعد ثلاثة أيام، وأصبحت المدينة كما لو أن زلزالاً دمّرها.

اثنا عشر رجلاً ضحايا العجاج، شُيِّعوا بموكب مهيب وكان من بينهم (سورين) جدّ هاصميك الذي بكته بكل ما اختزنته من محجريها من دموع، وما احتضنه قلبها من دماء..

لم تنقطع أحزان هاصميك، وساءت صحّتها حتى أصبحت أطرافها تختلج من آونةٍ لأخرى، وكأن الصقيع يداهمها كلّ حين. وكان أحمد بكل الحب والوفاء يعانقها، ويرجوها أن تخفف من أحزانها رأفة بصحتها التي تدهورت، وبجنينها الذي سكن أحشاءَها، فتستجيب مرغمة لندائه الناشج، والدموع تطفر من عينيها الزرقاوين كقطع من اللآلئ.. قالت له مرةً:

. أشكرك يا أحمد لأنك أقمتَ له احتفالاً في مقبرة النصارى، وأريد منك شيئاً آخر.

أجابها، والبسمة على شفتيه:

. أأقدر عليه؟!

. أجل.. تقدر عليه.

. ما هو؟

. إن كان المولود ذكراً أرجو أن تسميه (سورين) على اسم جدي رحمه الله.

. سورين؟! ما معنى هذا الاسم؟

. معناه القوي يا أحمد. أرجوك إكراماً لجدّي.

. أرجو أن تسمحي لي بحذف الحرف الخير منه إكراماً لوطني.

. المهم أن أناديه أنا سورين، وأنت نادِه سوري.

. وإن كان المولود أنثى.

. أقترح أن تسميها (نورا) على اسم أمّك الطيبة.

. اتّفقنا يا حبيبتي.

ساد جو الغرفة صمتٌ كئيب، ينظر إليها.. وتنظر إليه..

كان اشتعال الروح يأخذه إليها دفئاً وأغنية وشوقاً عابقاً بالحب والحنان.. كم كان يأخذه الكلام إلى فضاءات الجسد، فينهل منه بشوق، وكأنّه سيرحل عنه إلى الأبد.. وكانت روحها باردة، وفوق شتائها يطفو الظلام.. تملّكته الدهشة. اقترب منها كثيراً، فتنهدّت. أراد أن يطمئنها عن المستقبل عندما عجز أن ينقلها إلى عالم السحر واللذة.. أراد أن يقول لها كلاماً كثيراً لتهدأ روحها القلقة، وتسكن جراحها النديّة، لكنّها كانت تحلّق ببصرها في سماوات التيه. تستذكر الماضي، وتستحضر الحاضر، فترى أنهما توءمان كلاهما يؤدّيان إلى طريق الفناء. أخذت تفتح قلبها لثوب الريح تكسوه بألوان الشجن، وتملأ كأس الحياة اختصاراً تقتفي درب المحن..

قال لها باسماً:

. ما لأنثى الغيم لا تمطر في صحراء روحي بعد إن كانت بحّة الناي في صوتي توافي كلّ هنيهة بالندى بوحي؟ ما لأنثى الغيم كفّت عن السقيا؟ فهل لي الآن من لمى الشهد الرحيق؟

عانقته طويلاً، داعبت شعره الكثيف بحنان، ثمّ وضعت رأسه على صدرها قائلة:

. يا أحمد.. لا تلمني.. لقد هدّني وجدٌ أداريه، كنت أمشي حاملة حزني على ظهري، وتلفح جبهتي سحب الغبار، فلقيتك نجمة نابضة بالحب، ومنذ أن تزوّجتك أضحت روحي تعشق النار.. يا أحمد، أغانينا.. أمانينا، استطابت نومها في مهدها.. كم جهدنا نرفع الأبراج فيها كي نهزّ الشمس إن نامت.. لكن الحياة ضيّعتنا.. شاعرنا كيفورك كان معنا، قال له جدي رحمه الله: ألم تقل شيئاً عن هذه الرحلة؟ قال: بلى. اسمع ما أقول:

**(رحلة غريبة**
**لكن كيف؟**
**وإلى متى سأسير؟**
**وأدفن في ركضي أعزاء لي**
**واحداً تلو الآخر..**
**ليس تحت التراب**
**بل في أعماق روحي**
**في مكان رطب**
**مؤلم..**
**جريح**
**آه هل أعيش أنا؟**
**أو تعيشون أنتم؟!)**

هذا ما استطعت أن أتذكره يا أحمد من قول شاعرنا كيفورك الذي رحل في منتصف الطريق. فماذا ستقول لي أيها الحبيب؟ صدّقني يا أحمد أرى في كلّ ليلةٍ أمي تناديني وهي عارية. أخلع ثوبي لأسترها به، فيطير الثوب لأغدو عارية مثلها. إن قدرها يا أحمد سيكون قدري، وأخشى أن يأتي يوم فلا تجدني.

. أقول يا حبيبتي، كلّ ما يتراءى لك أضغاث أحلام، أنت زوجتي على سنّة الله ورسوله، وأم ولدي، وحبيبتي التي ما أحببتُ غيرها، واعلمي بأنه لن يفرّقنا إلاَّ الموت.

. وأمي إن جاءت؟

. ستكون بيننا. سنبني بيتاً يضمّك أنت وأهلك، ثقي بي يا حبيبتي، لن أتخلى عنكم ما دمت حياً.

. وإن رفضت البقاء معي؟

. سترحل أينما تريد.

. لا يا أحمد.. سأرحل معها.

. وأنا؟! وابنك؟!

. لكما الله. هذا قدري.

. ابعدي عنك الوساوس والأوهام، ونامي فسآخذك غداً في زيارة عائلية.
. إلى من؟
. إلى إحدى رفيقات الرحلة الصعبة.
. إذا كان ولابد، أرجو أن تأخذني إلى ترفندا وأمها شاكي.
. من تعنين؟
. أعني بيت أبي ياسين.
. هذا ما كنت . والله . أنوي فعله. نامي الآن يا حبيبتي.
. سأنام، ولكن أرجوك أن تبقي السراج مشتعلاً.
. كما تريدين..

# (6)

استكملت هاصميك زينتها، وارتدت ثوبها الأسود، وملاءة حريرية سوداء زادت جمالها ألقاً، بدت كإحدى آلهة الإغريق القدماء..

كان أحمد ينظر إليها بشغف غير مصدّق أن هذه الفاتنة هي زوجته، وأن هذا السحر كله له وحده، فهمس في سرّه: يا الله ما أروعها بلباس الحزن يا رب احفظها لي، ولا تدعها ترحل عني.

شبك يدها، وسارا إلى غرفة أبويه، فوقفت أمه ذاهلة عندما رأتهما، وأخذت تفرك عينيها من آونة لأخرى صائحة:

ياسمين يا نبعة ريحان، يا ورد جوري

ياسمين يا شجرة حور ومزيّنة بالدوري

ياسمين يا عيون نورا، يا أم السوري

ربّ خلّيها لأحمد ولا ياخذها الخوري

وزغردت طويلاً، ولم تتوقّف إلاَّ بسبب الطَرقات المتتالية على الباب الخارجي، وصوت أبي ياسين يهدر منادياً مستغيثاً.

أسرع أحمد، وفتح الباب، وكاد أبو ياسين يقع أرضاً لولا أن تداركه.

. ما بك يا عماه؟

. أين أبوك؟

. إنه يصلّي. خيراً إن شاء الله؟

. أم ياسين مريضة يا أحمد، ولا أقوى على نقلها إلى المشفى.

اقتربت أم احمد منه ذاهلة، وقالت له بإشفاق:

. ماذا أصابها يا أبا ياسين؟

. إنَّها تتقيأ من آونةٍ لأخرى، وتعتصر بطنها تارةً، وتارةً أخرى رأسها.. لقد ذبلت عيناها، وذوى عودها النضر، ولم تستطع أمّها أن تهدّئ من روعها، أو تخفف آلامها.. إنَّها تبكي بحرقة يا أم أحمد، وأتمنى أن أفديها بروحي والله. يا ربّ احفظها لي وخفف آلامها، إنَّها أمانة غالية، فلا تحرمني من حملها يا الله...

ودمعت عينا أبي ياسين.. قالت أم أحمد باسمة:

. مبارك يا أبا ياسين.. امرأتك حامل.

تمتم أبو ياسين ذاهلاً:

. حامل؟ امرأتي حامل؟

هزت أم أحمد رأسها بالإيجاب، وقالت:

. حامل إن شاء الله، فلا تخف.

زاد ذهوله ودهشته، وجلس على الأرض متهالكاً.

أقبل أبو أحمد إليه، وأنهضه قائلاً:

. مبارك يا أبا ياسين، والله إنك فحل.

قالت أم أحمد:

. اذهب يا أبا أحمد معه، وسنأتي أنا وأحمد وزوجته إليكم بعد قليل.

صاح أبو ياسين بأعلى صوت:

. والله لن نذهب إلا سويّة.

أسرعت أم أحمد، ودلفت إلى غرفة المؤونة، وجلبت معها بعض الأعشاب الطبية، فوضعتها بكيس من الورق وجاءت بها قائلة:

. هيا.. سترى يا أبا ياسين، كيف سأجعل امرأتك تضحك.

. لكنْ، لا أريدها أن تتكلم.

. لماذا؟

. ستعرفين بعد قليل.

كانت أم ياسين . كما توقّعت أم أحمد . قَدْ طلبت من أمها أن تغلي لها بعض الأعشاب التي جلبتها معها، ففعلت وما إن شربت نقيعها حتى سكنت آلامها، وأخذت تنظر بعين الرضا والشكر إلى أم أحمد التي اقتربت منها كثيراً، فقبّلتها قائلة:

. ستنجبين لأبي ياسين المولود الذي انتظره سنين طويلة، أليس كذلك؟

هزّت أم ياسين رأسها بالإيجاب، فقالت أم أحمد:

. الآن أنت بخير، أرجو أن تسمحوا لي بالذهاب، لقد تركت حميدة وحدها، وقلت لها إنني لن أتأخر عليها.

تشبّثت بها أم ياسين راجية البقاء قليلاً، فاستجابت أم أحمد لرجائها.

اقتربت هاصميك من أم ياسين، وقبّلتها مراراً قائلة:

. لو لم يأتِ أبو ياسين إلينا لجئناك والله.

أمسكت أم ياسين يد هاصميك، واعتصرتها بكل الحب الكامن فيها، ولم تنبس ببنت شفة.

قالت أم أحمد لأبي ياسين مستفهمة:

. ما اسمها؟

. ترفندا.

ما معنى هذا الاسم؟

. يعني بلغتهم (وجه القمر).

. ما شاء الله، نادِها (قمر) وانتهى الأمر، وهي والله مثل القمر، وما اسم أمها يا أبا ياسين؟

. شاكي، وتعني (قليلة الحظ).

. والله مثلما نقول /شاكي باكي/ عن قليلة الحظ، لكنها سعيدة الحظ، لذا وجب أن تغير لها اسمها. هذا ظلم. أما علّمتها العربية؟

ضحك أبو ياسين طويلاً، وقال:

. أصبحت تفهم كلّ ما نقوله، لكنها عند الكلام فإنها تتكلم بعربية ما تكلّمها عربي على وجه الأرض، لسانها مازال معوجاً؛ إنَّها تذكّر المؤنث، وتؤنّث المذّكر، لكنها ذكية وأمها أذكى منها. اسألي قمراً . كما تقولين . واسمعي إجاباتها وستحكمين.

اقتربت أم أحمد من أم ياسين، وقالت لها:

. اسمك من اليوم (قمر) يا أم ياسين، ماذا تقولين؟

أجابت بتلعثم:

. أنتَ تقول زينْ، أنتَ زين، أنا يحبك يا أم أحمد.

ضحك الجالسون طويلاً، فطلب أبو ياسين من أم أحمد أن تسأل أمها أي سؤال، فقالت أم أحمد لشاكي:

. اسمك من اليوم (سعيدة)، ماذا تقولين؟

. فأجابت شاكي بتعثّر:

. إيدة..

فردّ عليها أبو ياسين على الفور:

. إي.. عيدة السعيدة..

هزّت شاكي رأسها، وابتسمت.

نظرت هاصميك إلى ترفندا نظرة حب، ثم اقتربت منها كثيراً، ولامست بطنها برفق، وقالت:

. ترفندا.. ستلدين إن شاء الله ولداً.

ابتسمت ترفندا وقالت:

. أنتَ هاصميك مثلو إن شاء الله.

قال أبو ياسين:

. إن شاء الله. الله يسمع منكما. يا عيدة السعيدة أين الشاي الأحمر؟

. جاهز.

كانت شاكي قَدْ أعدّت الشاي الأحمر كما يعدّه أبو ياسين، ووضعت أمام كلّ واحد كوباً، وبدأت تسكب بتأنٍّ الشاي القرمزي.

قال أبو أحمد:

. المهم يا أبا ياسين أن تكون مرتاحاً معهما.

. أقسم لك بالله يا أبا أحمد إنني ما عرفت الراحة أو الاستقرار إلاَّ في ظلَّهما، وإنني أفديهما بروحي. لم أرَ في حياتي مثلهنّ طيبةً وصدقاً وأمانة، وما يعجبني فيهن أكثر أنّهن أتقنَّ تصليح السلاح وتنظيفه وتركيبه بسرعةٍ قياسية.. أتصدّق أنهما قادرتان على التسديد والضبط والإطلاق بدّقة قلّما يمتلكها رامٍ؟

. ما شاء الله.. ما شاء الله.. أتعرف يا أبا ياسين، البارحة قال لي أبو صادق الميكانيكي إن عماله الأرمن ابتكروا طرائق عديدة، وطوّروا بعض المعدّات بشكل أذهل كبار الميكانيكيين، وهذا إن دلّ على شيء، فإنما يدلّ على ذكائهم ومقدرتهم الفائقة في مجال الصناعة.

. ليس في الصناعة وحدها يا أبا أحمد. فنساؤهم نظيفات ومرتّبات وأنيقات ويعرفن كيف يمتلكن قلب الزوج وعقله، والله إنهن ملائكة.

قالت أم أحمد محتجّة:

. أنتم الرجال تحبّون الغريبة. أما نحن فنعمل عمل الحمير ولا تقولون فينا هذا القول الجميل.

ضحك أبو أحمد، وقال:

. يا أم أحمد، كلمة حقّ يجب أن تقال.. أنت يا بنة عمي فيك . والله . كلّ الخير والبركة، لم تقصرّي في حقّي يوماً، أنتِ لست بحاجةٍ إلى ثناء.

. لا يا أبا أحمد، أنا كغيري من النسوة يحببنَ الثناء فَلِمَ تبخلون به علينا؟ ألا نستحقّه؟

. والله ثم والله، تستحقون أكثر من ذلك.

قال أبو ياسين متفاخراً:

. دعك من كلام النساء يا أبا أحمد. أريد أن أذيع لك سرّاً أرجو أن تكتمه.

. تفضّل يا أبا الأسرار.

. لقد أجريت بمساعدة أم ياسين وأمها تعديلاً في حجرة إطلاق (الطبنجة)، وقد حقّقنا نجاحاً باهراً بحيث أصبح المدى أكثر من ذي قبل، وأكثر مقدرةً على الاختراق والنفاذ.

. وهل علم الأتراك بهذا الاختراع؟

. لا.. ليس بعد.

. أعلِمُهم به كي تحصل على براءة اختراع وجائزة.

. لا أريد.

. لماذا؟

. أخشى من النتائج العكسية. أريده أن ينفع الثوار وحدهم دون غيرهم.

قالت أم أحمد مستأذنة:

. أعتقد أننا اطمأنّنا على أم ياسين، ونرجو أن تسمحوا لنا بالذهاب إلى البيت.

وقف الجميع، وقال أبو أحمد وهو يودّعهم:

. هل ستذهب إلى مضافة علي بك هذا المساء؟

. أجل يا أبا أحمد، فلديّ أكثر من سؤال سأطرحه على علي بك لعلّه يُشفي غليلي بالإجابة عنها.

. إذن.. هيّا بنا.

. اذهب أنت وأحمد، وسألحق بكما بعد قليل.

شدّ الحديث عن السلاح المعدّل انتباه أحمد وتفكيره طويلاً، فهمس في أذن أبي ياسين كليمات ارتجف لوقعها، وأشار بالسبّابة علامة النفي، لكنه ألحّ عليه كثيراً بأي ثمن يريده، حتى استكان أبو ياسين، وهدأ فهزّ رأسه موافقاً شريطة السريّة في الأمر.

ضحك أحمد قائلاً:

. وهل تريدها مثل أسرارك أم مثل أسراري؟

. لا.. لا.. لا أريدها مثل أسراري.

. إذن لك هذا.

كان أبو أحمد طوال الطريق إلى البيت يفكّر بعدّة أمور، منها إصرار ولده على امتلاك السلاح المعدّل، أما الأمور الأخرى فسيطرحها على علي بك بعد أن يطرح أبو ياسين أسئلته عليه، ولعلّ أهم سؤال مازال يدور في رأسه ألا وهو معرفة السرّ الحقيقي لعداء الأتراك للأرمن الطيّبين، فهو يعرف أن الأرمن كانوا يخدمون في الجيش التركي، وأن منهم ضبّاطاً كباراً، ونواباً في مجلس المبعوثان، ورجال أعمال وفنانين وأدباء ومفكرين، فهل من المعقول أنهم تآمروا على تركيا، وهم يعيشون بينهم؟ ولماذا إذن حدث ذلك؟ فهو قَدْ سمع أن السبب الرئيس هو خطورة تفوّقهم، فهل هذا صحيح؟

تاه فكر أبي أحمد في محنة الأرمن المتواصلة وعذاباتهم التي لم تنقطع، وتمتم في سرّه: كان الله في عونهم. تنبّهت أم أحمد لحال زوجها وشروده فقالت:

. ما بك يا أبا أحمد واجماً لا تتحدث؟ أخشى أنك غضبتَ من احتجاجي على الرجال أمام أبي ياسين؟

. لا.. أبداً.

قال أحمد معتذراً:

. أخشى يا أبي أنك غضبت مني عندما طلبت السلاح من أبي ياسين؟ والله لم أقصد الإساءة إلى أحد، أو أنوي الغدر بأحد.. لكن الحذر واجب.

. لا يا بني، فرغم خطورة ما طلبت، فأنا على ثقةٍ من وعيك. إن سبب صمتي ووجومي هو تفكيري بالغد، وما يحمله من مفاجآت قَدْ تكون غير سارّة، وستسمع بأذنيك ما سنقول لعلي بك، وأرجو أن تشاركنا الحديث في المضافة.

. كما تريد.

. هيا أسرعوا لأن وقت لقاء الأحبة في المضافة قَدْ حان.

# (7)

كان علي بك قلقاً.. سحب سوداء خيّمت في سماء حياته منعت أشعة الشمس من اختراق حجبها، وثمّة طيور سوداء تنعق في زوايا مضافته التي يؤّمها الأحبة.

هموم ثقال، وكوابيس مرهقة تتناوب على رأسه وصدره النحيل، وكان رغم العناء والمحن يبتسم، وكانت ابتسامته بلسماً للجراح النازفة، وإشراقةً في عتمة الضياع.

الدير مهدّدة بالوباء، والمجاعة تفتك بأحلام الفقراء.. الحرب المستعرة تنفث سمومها في كلّ اتّجاه، وخيوط سوداء تجرّ المناضلين تارةً هنا وتارةً هناك..

قال أبو طارق:

. أخشى أن ما جرى للأرمن قَدْ يجري علينا..

شخصت عيونهم، واشرأبّت أعناقهم، ويبست حلوقهم، فلم يعد يقوى أحدهم حتى على الهمس.

قال المختار:

. أخشى الفجيعة مما ستؤول إليه الأحوال..

همهموا طويلاً ثم أدركهم السبات، لكنهم ظلّوا أحياء.. أي خرابٍ سيحلّ في أرض الخير؟ وأي دمار سيطيح بمعالم الصفاء والنقاء؟

قال أبو ياسين:

. إن انتصر الأتراك سيثأرون، وإن خسروا سيثأرون أيضاً، فما العمل؟

حملق الرجال في عيني أبي ياسين، وشفاههم الراجفة تقطر منها تمتمات واهنة.. لا شيء عندهم يخسرونه سوى الكرامة، وهذه عصيّةٌ على الأتراك وغيرهم.. الأرض والعرض لا مساومة عليهما مهما بلغت التضحيات.

قال علي بك محتدّاً:

. استعدّوا لساعة الصفر، ولعمري إنَّها لقريبة.

قال أبو سلطان بعد أن جفف عرقه بمنديل توضع داخل طربوشه:

. ما رأي ممثّلينا في مجلس المبعوثان يا أبا راغب؟

ردّ أبو صادق الميكانيكي ساخراً:

. مجلس المبعوثان؟! إنه لا يقدّم ولا يؤخّر، ولن يستطيع ممثّلونا أن يجهروا بأصواتهم فيه، وإن تحدّثوا فسيكون مصيرهم مصير الأعضاء الأرمن فيه.

اقترب علي بك من أبي صادق، وأمسك بكتفه وهزّها قائلاً:

. لا يا أبا صادق.. إن ممثّلينا على قدرٍ كبير من الوعي والمسؤولية، وما أظنّ أنهم سيتقاعسون عن تلبية نداء الوطن..

. وهل كان لهم رأي في سَوقيات الأرمن؟

. صدّقني يا أبا صادق إنهم استنكروا وشجبوا، ورفعوا أصواتهم عالياً، وقد نالهم غضب الصدر الأعظم وكل السلاطين.

. وماذا بعد ذلك؟

. لا شيء يا أخي.. المهم أن نتدارس الموقف الحرج الآن.. أريدكم يا أخوتي أن تحضروا الاجتماع الموسّع الذي سيضم ممثلينا في مجلس المبعوثان، وعدداً من أعضاء الخلية الثورية.. ستسمعون في الغد إن شاء الله ما يسرّكم.

قال أبو عدنان المختار:

. ما رأيكم أن يتم الاجتماع في بستاني، فهو مناسب لتروه كيف غدا جميلاً مثمراً، ومن ناحية أخرى لتلبّوا دعوتي لكم جميعاً على العشاء؟

قال أبو سلطان ضاحكاً:

. إذا كان (ذو القرنين) فسنأتي، أما إذا كان (ذو الجناحين) فلن يلبي دعوتك أحد.

رد عليه المختار متحديّاً:

. ذو القرنين يا أبا سلطان جاهز والله، وأنا أبو عدنان.

قال علي بك ضاحكاً:

. اطمئن يا أبا عدنان، سنلبي دعوتك مهما كان عشاؤك.

قال أبو ياسين:

. يا أبا راغب.. أنا من خلال علاقتي الحميمة برؤساء العشائر وشيوخ القبائل أرى أنهم يميلون إلى الهاشميين واتصالاتهم بالإنكليز والفرنسيين، فهل يا ترى هم على صواب؟

. كالمستجير من الرمضاء بالنار، وأعتقد أن كلامي واضح.

. نعم يا أبا راغب، صدقت والله.

. دعوا الحديث في السياسة للغد، سنناقش كلّ شيء بالتفصيل بعد عشاء أبي عدنان المختار، والآن أرجو أن تحدّثوني عن أحوالكم مع الأرمن.

قال المختار:

. أنا سأترك الحديث لحين زيارتكم إلى البستان، وسترون بأم أعينكم كيف جعله الأرمن جنّة، والله لقد ندمت كثيراً لأنني لم أستضف المزيد منهم. إنهم نشيطون وعمليّون وأذكياء، ويقنعون بالقليل. سترى يا أبا راغب كم هم سعداء عندي؟

. الحمد لله.. وأنت يا أبا أحمد، كيف حال ولدك الآن؟

سكت أبو أحمد، ولم ينبس ببنت شفة، فذهل علي بك وقال متسائلاً:

. ماذا حدث يا أبا أحمد؟ قل لي أرجوك.

. لا شيء يا أبا راغب غير أن ولدي نسي أمه وأباه منذ أن تزوّج الأرمنية، فلم يعد يرى في الدنيا سوى عينيها الزرقاوين.

فتنفس علي بك الصعداء، وقال باسماً:

. ألا يروق لك ذلك يا أبا أحمد؟

. بلى والله، فسعادتي أراها من خلال سعادة ولدي الوحيد.

. إذن لِمَ سكتَّ في البداية، وجعلتَ القلق ينتابني؟

. لقد تغيّرت زوجته بعد وفاة جدّها، وقد سمعتها تقول لأحمد أنها لن تظل عنده عند مجيء أهلها في السوقيات القادمة.

. لا تقلق يا أبا أحمد، فلكل معضلة حل إن شاء الله، وأعتقد أنها عندما تضع وليدها ستتغيّر أيضاً، ولن تقوى على مفارقته.

نظر علي بك في عيني أبي ياسين، فوجدهما لامعتين تشيان بأسرار لم تستطيعا كتمانها.. اقترب منه، وربّت على كتفه قائلاً:

. كيف حال المخترع اليوم؟

. أنا بخير، وزوجتي ستلد لي إن شاء الله المولود الذي انتظرته طويلاً.

. إن شاء الله.. الله كريم يا أبا ياسين.

لم يستطع أبو احمد إخفاء ضحكة انفجرت عالية، فأذهلت الموجودين، أشار علي بك متسائلاً، فقال والضحكة ما تزال تملأ فمه:

. أرجوك، اسأله عن أم زوجته.

ضحك أبو ياسين وقال:

. إنَّها مازالت واجمة لا تتحدّث إلاَّ بطلب رسمي، وإن تحدثت فإنها كابنتها تماماً تذكّر المؤنّث، وتؤنّث المذكّر.

وروى أبو ياسين عدة أمثلة على ذلك، فضحك الجميع. التفت علي بك بعد ذلك إلى أبي صادق الميكانيكي، فرآه باسماً، وقد بدت عليه آثار النعمة والثراء، وقف أبو صادق عندما اقترب منه علي بك، فقال على الفور:

. لديّ ثلاثة رجال، ليتهم كانوا ثلاثين. تصوّر يا أبا راغب بعد أن أتقنوا الصنعة وبرعوا فيها، وعدّلوا في عدد من الآلات، لم يعد يعجبهم عملي. يقولون لي كلّ دقيقة: اجلس أنتَ ولا تفسد عملنا.. والله لا يدعوني أمسك مفتاحاً أو مقراصاً، جزاهم الله كلّ خير.

. وماذا فعلتَ من أجلهم؟

. بنيت لهم بجانب الورشة بيتاً من ثلاث غرف ومطبخ وحمام، وفيه فسحة واسعة، زرعوا فيها الأشجار والخضرة والورد، وجعلوه جنّة، لكنّ أمراً ما قَدْ حدث، ويجب أن تطَّلع عليه.

. ما هو يا أبا صادق؟

. آرتين أحبّ فتاة تجاورنا، وشاورني بأمرها، فماذا أفعل؟

. لا يحق له الزواج من مسلمة إلاَّ بعد أن يعتنق الإسلام، هذا شرع الله، فإن فعل فعليّ الصِّداق وتجهيز العروس بما يليق.

. لكن أحوالي جيّدة والحمد لله، ولن أبخل عليه بشيء.

. زيادة الخير خير يا أبا صادق.

أما أبو سلطان، فصاح بأعلى صوت عندما اقترب منه علي بك بكل عبارات الشكر والتقدير، وقد أدهش الحاضرين بأناقته، وعدم تنافر ألوان لباسه، وبدا كأحد وجهاء المدينة:

. ما هذا يا أبا سلطان؟

. والله لأول مرة أشعر بأنني إنسان له كيان، ورغم زواجي مرتيّن، ولديّ سبع بنات، ما شعرت بلذّة الزواج وروعته إلاَّ الآن.. و/ميرنا/ هي السبب، إنَّها لا تدعني أخرج من البيت قبل أن تكوي لي ملابسي بعد أن تنتقيها وتمسح طربوشي، وتودّعني بقبلة على خدّي.

. عظيم يا أبا سلطان.. أنتَ تستحقّ أكثر من ذلك، لكن ما شعور الضرّتين.

. لو كانت ميرنا ديرية لما طلع عليها الصباح، ولكن لأنها غريبة لا تفهم ما تقولان فيها أحبّتاها. وتصوّر أنهنّ اتفقن عليّ في كلّ صغيرة وكبيرة، وعندما أدخل البيت أجد ميرنا مرّة في غرفة زوجتي الأولى، ومرّة أخرى في غرفة زوجتي الثانية، وقد يجتمعن أحياناً في غرفةٍ واحدة.

. أَلَمْ تغيّر اسمها بعد؟

. عندما عرفت معنى اسمها وهو (السلام) أحببتُ أن أناديها (سلام)، لكنّها تحب اسمها، وتصوّر زوجتي الأولى تسمّيها (مريومة) والثانية تسميها (مريولة)، وأدلّعها أحياناً وأناديها (ميمي).

. أتمنى أن تكون ( ميرنا) سلاماً ووئاماً مع ضرتيها، لكن عليك أن تعدل بينهن لئلا تغضب الله، وينالك غضبهن.

. أتمنى من كلّ قلبي أن يستمر السلام والوئام، أمّا العدل فإنه مفقود والله، ليس بيدي يا علي بك. أصارحك القول بأنني أدعو الله أن يغفر لي زلّتي، وفي اليوم الذي لا أعدل فيه معهن، فإن صاحبة الدور تسوّد عيشتي والله، ومع ذلك فأنا راضٍ.

أليس في ذلك عدل؟

. لا يا أبا سلطان.. ليس هذا هو العدل.. العدل تعرفه جيداً، وأجدادنا كانوا يقولون: "عند المسا تتساوى النسا".

. ألا تعتقد يا أبا راغب أنهم واهمون، والله إنني لا أساوي ميرنا بأية امرأة أخرى. إنَّها تعرف جيّداً كيف تحبّ وتكسب قلب زوجها، وتعرف ما أحب، وتتحاشى كلّ فعل لا أحبه. والله ما مرّة رأتني مهموماً، إلا وأزاحت عني الهموم بلمساتها السحرية، بعربيتها الركيكة، بابتسامتها العذبة الجميلة..

. وماذا بعد ذلك؟

. أصارحك القول بأن زوجتي الأولى قالت لي: إن وضعت (مريومة) مولوداً ذكراً، فسيزداد حبها ودلالها، وإلاّ فالويل لها، وهذا ما أكّدته زوجتي الثانية، فما رأيك؟

. يا أبا سلطان، هذا اعتراض على حكم الله . والعياذ بالله . قل لهما ذلك ولا تخف، فالله ارحم بعباده من الأم على وليدها، والآن أريد منك أن تخبرني عن ابنها الذي رافقها إلى بيتك.

. سركيس.. إنه والله مثل ابني، لا يفارق ابنتي سلطانة، وقد علّمته العربية قراءة وكتابة، وسأضعه قريباً عند الملاّ حسن ليدرس العربية والقرآن، وكل شيء بثوابه يا علي بك.

. بارك الله فيك.

اقترب علي بك من أبي طارق، فوجده واجماً يفكّر.

. ما بك يا أبا طارق؟ وأين طارق الآن؟

. الحمد لله على كلّ حال. أخي سعد غضب مني منذ أن تزوج طارق بأرمنية، وعلا صوته، وقذفني بكلمات سامحه الله عليها، حتى إنه لم يحضر عرس طارق.

. لماذا؟

. كانوا يريدون طارقاً لابنتهم. علماً بأنني كنت قَدْ طرحتُ هذا الموضوع على ولدي طارق أكثر من مرّة، وكان يجيبني بأن ابنة عمه مثل أخته ولا عاطفة لديه تجاهها سوى عاطفة الأخوة، فماذا أعمل؟ أريدك أن تحدّث أخي فهو يسمع كلامك، وكونه الأخ الأكبر لي فإنني حريص على طاعته وحبه، وعدم الردّ عليه إلاَّ بالحسنى، وقد أرسلت طارقاً مع زوجته إلى خالته في الحسكة بضعة أيام.

. لا تهتم يا أبا طارق، سأستدعي سعداً صباح الغد إلى مكتبي وأتحدث معه. لا تهتم. قل لي ما اسم زوجة طارق؟

. /لوسين/ كما قال لي، ومعناه القمر.

. بارك الله له فيها، وجعلها قمراً تضيء له عتمة دربه الطويل.. طارق شاب ناضج، وقد أعجبتني آراؤه في السياسة والاقتصاد، ودراسته الجادّة وتفوّقه في المدرسة. انتبه إليه جيّداً، وسيكون له شأن في المستقبل إن شاء الله.

. إن شاء الله...

ارتجفت القلوب، واختلجت الأطراف، وحملقت العيون، واشرأبّت الأعناق، عندما دخل خادم علي بك لاهثاً، وهمس في أذن سيّده كليمات، هزّ لها رأسه مراراً ثم ما لبث أن وقف ونظر في وجوه الحاضرين، واستأذنهم دقائق معدودة، ثم خرج من المضافة.

بدأ الهمس يعلو، واللغط يكثر.. تُرى من القادم من رحم الليل؟! أي رعافٍ همت به سحابات الظلام؟! وأية حبلى جاءها المخاض على أعتاب الكلام؟!

هو الليل نبع الظنون ووكر الأحلام، فكن يا ليل يقيناً وبشارةً وهاتفاً للسلام، ولا تكن يا ليل ذئباً وأفعواناً وعيوناً لا تنام..

ألقى الشك ظلاله على الوجوه الصفراء طويلاً، ما لبث الدم أن تدفّق إليها، لتقف الأجساد، وتشرئب الأعناق، وتنطلق الألسن مهلّلة مرحّبة..

خضر بك، ومحمد بك، وتركي بك، من ممثّلي لواء الزور في مجلس المبعوثان.. إنهم من كرام الناس خُلقاً وسلوكاً ووطنية، ولا غبار على إخلاصهم ووفائهم.

قال خضر بك:

. شرفٌ كبير أن نلتقي هذه الوجوه الطيّبة المؤمنة بحب الوطن، المدافعة عن شرف الأمة وكرامتها، وكان بودّنا أن نحضر اجتماع الغد، لكن أمراً طارئاً استدعي منّا ضرورة السفر إلى الأستانة صباح الغد، وسنلتقي عند عودتنا ونتحدّث كثيراً.

تقدّم محمد بك، وقال:

. باسمي وباسم زملائي، نبارك جهودكم الخيّرة في احتضان الأرمن. إنه عمل عظيم سيذكره التاريخ في صحائفه المشرقة، ونرجو أن تتكرر مثل هذا الأفعال، لأن القوافل مستمرة.

ثم تقدّم تركي بك وقال:

. أرجو ألاَّ تقلقوا من التكاليف المادية التي سبّبتها أفعالكم الطيبة. نحن سنرسل بانتظام كلّ ما يلزم إلى لجنة المساعدات، ونرجوكم ألاّ تصطدموا مع جند الوالي وأزلامه، ودعوا مثل هذه الأمور لعلي بك فهو أدرى الناس بأخلاق الوالي وسلوكه، وأنا على ثقة بأنْ: لن يصيبكم إلاَّ ما كتب الله لكم.

قال علي بك:

. إن ما فعله المناضلون هو واجبهم، ولا مِنّة فيه، وإنهم على استعداد لاحتضان العديد من الوافدين، ولن يبخلوا بأيّ جهد أو مال، ونحن سنمدّ لهم يد المساعدة المادية والمعنوية، ولا خوف عليهم إن شاء الله. صحيح أنني أعرف الوالي قبل تسلّمه الولاية، لكنه صرّح لي بأن ضغوط /طلعت باشا/ وأوامر الباب العالي تضايقه كثيراً، وتلحّ عليه بالقيام بواجبه، والتسامح بحدود ضيّقة، وإني أعدكم أن يكون دائماً وأبداً إلى جانبكم. سنجتمع نحن غداً في بستان المختار، ونلبّي دعوته، ونتحدّث طويلاً.

قال أبو ياسين مخاطباً أعضاء مجلس المبعوثان:

. نخشى عليكم من فقدان أماكنكم في المجلس.

ضحك محمد بك قائلاً:

. يا أبا ياسين، أكثر من مرة حاولوا طردنا من المجلس، وقد نُطرد منه في أي وقت، أو نُعتَقل، أو نُنفى. فالأيام القادمة عصيبة جداً، ولسنا آسفين على شيء. أسفنا أن يستشري الظلم والعدوان، ولا أحد يستطيع أن يُجابهه أو يتصدّى له.

. ماذا تعني بالأيام القادمة يا محمد بك؟

. الأيام القادمة يا أبا ياسين محَنٌ وامتحان لكم ولنا ولشعبنا، فلتكن صفوفكم متراصّة، وأيديكم على الزِّناد.

كانت كلمات محمد بك يشوبها الأسى والحزن، ولم تستطع الابتسامة الصفراء التي ارتسمت على شفتيه أن تخفي معالم الفجيعة التي ستحل على لواء الزور، فالحرب الكونية شارفت على الانتهاء، وقد تكشّفت بعض نتائجها، والعرب قَدْ وقفوا ضدّ الأتراك، والجيش العربي على أُهبة الاستعداد، فاكتفى محمد بك أن هزّ رأسه مراراً، ثم استأذن مع زميليه بالانصراف، فشيّعتْهم النظرات بعيون قلقة.

حاول المختار وزملاؤه الانصراف أيضاً، لكنّ المضيف أبى، فجاء العشاء، وجلسوا جميعاً يمضغون الطعام وبعض الكلام، حتى انتهوا، فخرجوا يسيرون بتؤدة، ويتحدّثون بصوت خفيض، وآخرون يرتّبون أحلامهم وأمانيهم في خزانة الوقت ولو إلى حين.

# (8)

لم يكن نيسان /1916/ ربيعاً مزهراً بدير الزور، كان كسابقه يحمل سيف القهر ومتراس الرهبة.. يقتحم حصون الأمل، ويلوي أعناق الترجّي.. يفتح حقائب الصمت، ويجرف كلّ أحاديث الأمان..

بيوتٌ دُمّرت، وعائلات شُرّدت، لوى الموج ساعد الصبر عندما جرف النهر عدداً من الأطفال والحيوانات.

تجمّع أكثر من خمسين رجلاً يرمّمون السدّ الكبير الذي انهار قسمٌ منه، ويدعمونه بالصخور السوداء، وصيحات النخوة والشهامة تدوّي، وصوت الكسّاري يعلو فوق كلّ صوت:

**هاتوا الصخر هاتوا أسلاك**
**تا نقيّد النهر ونْقُلّه أهلاك**
**دوسوا السدّة، زين.. زين**
**لا تخلّوها تعدّي غاد وهينْ**
**دوسوا السدة زين يا نشامى**
**دوسوها زين إخوة الريامى**

أمّا النساء فقد تجمّعن عند امرأة عرفتها المدينة مثالاً للشهامة والكرم والنخوة والإيثار.. إنَّها الشيخة فاطمة بنت محمد بك التي أنفقت جلّ مالها من أجل أن تغرس البسمة على شفاه المنكوبين والمتعبين.. كانت تقيم الولائم للفقراء والمساكين، وتوزّع عليهم المال واللباس والمؤن، وكان والدها يشجّعها، ويأخذ بيدها.. قال لها مرّةً:

. يا شيخة فاطمة.. أتعرفين ماذا سنفعل إن ضاقت بنا الدنيا، ونفذ مالُنا؟!

وكانت تجيبه باسمةً:

. لا تخف يا أبي.. إنّ أحبّ الأسماء إلى الله هو (الكريم)، وأحب الناس إليه هم (الكرماء المحسنون).. لقد عفا الرسول الكريم محمد ε عن ابنة حاتم الطائي وقومها عندما وقعوا في الأسر إكراماً لأبيها الذي اشتهر بالكرم.. لا تخف يا أبي، لا تخف.. فإن الله لن يضيّعنا.

كان محمد بك معجباً بذكاء ابنته، وسرعة بديهتها، فابتسم وربّت على كتفها قائلاً:

. أكثري من العطاء يا أم بسام، فوالله لو توقفتِ عنه يوماً لأغضبتِ أباك.

وكان أكثر من شيخٍ عرفتهم المدينة أيام الجوع، يولمون الولائم للجائعين، ويكسون العراة، ويبذلون المال بسخاء، أمثال الشيخ أحمد وجنيد والحاج رشيد.. كانوا يدورون في الأحياء، يوزّعون المؤن على المنكوبين، وقد بثّوا عدداً من الرجال يصيحون: من يريد مساعدة فليتجه إلى بيوت هؤلاء المحسنين. فتهافت الفقراء والمُعوزين إليهم من كلّ حدب وصوب.

بقعة ضوءٍ أخرى أنارت دياجير الظلام في حياة عدد من الرجال بعيداً عن جوّ النكبة، وما خلّفه الفيضان أمثال: أحمد الصبّاغ وأبي ياسين وأبي سلطان وطارق، إذ منّ الله عليهم بأولاد ذكور عدا طارقاً الذي كان نصيبه مولودة جميلة. أقاموا لأجلهم الاحتفالات، ولم تعد الدنيا تتسع لفرحتهم.

أما الخلية الثورية التي اتّسعت رقعتها، وكبر فضاؤها، وتنوّعت مشاربها، فقد قادها المثقّفون والمناضلون الثوريون الذين شكّلوا جماعة العهد لنقض مضاجع العثمانيين، وكانت الأستانة تدرك جيداً أهمية لواء الزور ومقدرته الفائقة في قلب الموازين، وبخاصّة عندما مالت كفّة الحلفاء عليها، وجعلتها بين المطرقة والسندان، فقرّرت إرسال والٍ جديد إليها اسمه /علي سعاد بك/ الذي بدا لطيفاً وكريماً ومتسامحاً مع سوقيات الأرمن الجديدة التي تهافتت على اللواء، بحيث أمر بترحيلهم إلى حلب دون المساس بهم.

وكان من بين القادمين بقايا أهل هاصميك زوجة أحمد الصبّاغ: أمها وأختها وخالتها، فقدْنَ الأب والأخ والابن.. احتضنتهم هاصميك بكل الشوق الكامن فيها..

دموع مدرارة تهطل بلا حدود، تبلّل الوجنات، وتحرق الشِّفاه، والنشيج يتعالى كلّ هنيهةٍ، وصوت هاصميك الناشج يتساءل:

. أمّاه.. أين أبي؟ أين إخوتي؟

. لقد رحلوا يا بنتي إلى حضرة الإله..

. إذن قُتِلوا؟ أليس كذلك؟

. لقد أُلقوا في هاويةٍ سحيقة قبل أن نصل إلى هنا بوقت قصير.. صلّي لأجلِهم يا بنتي.

صرخت هاصميك صرخةً رجّت الأرض، أفزعت كلّ الواقفين، وسقطت مغشيّاً عليها.. حملها أحمد على ساعديه، وبلّل وجنتيها بدموعه مردّداً:

. هاصميك.. حبيبتي.. يا أطهر النساء، ردّي عليّ.. لا تتركيني وحيداً.. إن لم يكن من أجلي فمن أجل طفلنا الرضيع.

تحت ظِلّ شجرة على الشاطئ أجلسَها، ومسح وجهها بمنديله المبلل بالماء.. فتحت عينيها ببطء وتثاقل، فرأت خيالات ترمقها بعيون ذابلة.. اقتربت منها أمها، فأودعت وجهها الجميل قبلات محمومة.. همست في أذنها:

. هل مازال جدّك حيّاً؟

بكت هاصميك ثانيةً، واحتضنت أمّها بقوّة وتمتمت ناشجةً:

. لقد رحل يا أمي.. أثقل عليه المرض، وجاء العجاج ليكتم أنفاسه.

. أين وليدك؟

. إنه عند جدّته في البيت.

. ماذا أسميته يا بنيّتي؟

. على اسم جدي: سورين

. بارك الله فيك، وحفظك الربّ.

. أمّاه.. ألا تبقين معي؟

. لا يا بنتي لن نستطيع. قالوا لنا سنذهب إلى حلب.

. سأرحل معك.

والتفتت إلى أحمد، ثمّ ركعت عند قدميه تستحلفه بالله وبرسله وبحبها له أن يسمح لها بالرحيل مع بقايا أهلها..

طار صواب أحمد، واستحلفها بالله وبمحمد والمسيح أن تبقى مع وليدها وأهله في بيته، لكنّها أبت، وأصرّت على الرحيل..

. وابننا يا هاصميك؟!

. إن أردتَ أن تأخذه فهو ابنك، وإن أعطيتنيه فسأشكرك من كلّ قلبي.. أريد يا أحمد أن أحيا أو أموت مع أهلي.. اتركني أرجوك.

. وإن قلتُ لن ترحلي؟

. سأقتل نفسي والله أمامك.

. هاصميك؟

. أحمد.. أرجوك دعني.

وقبّلت يديه، وركعت عند قدميه باكيةً..

. انهضي حبيبتي..

لم يستطع أحمد أن يكسر قيود إصرارها، فكان ينظر إليها نظرة استجداء وترجٍّ، وكانت تهز رأسها رافضةً..

. إذن سيبقى الطفل عندي، وارحلي إن شئت.

سار ركب الأرمن، وقد زاد عددهم امرأة، لكنها ليست كأي امرأة.. أنها هاصميك. ولم يسمح حرّاس الرّكب لأي إنسانٍ أن يأخذ أحداً منهم.. همست هاصميك في أذن أحمد كليماتٍ ناشجةً، ورحلت.

سار أحمد إلى حيث لا يدري، تعثّر في مشيته أكثر من مرّة، ولم تسعفْه عيناه الدامعتان من النظر جيّداً إلى حيث يسير.. توقّف هنيهةً، وضرب جبهته بكفّه، وتمتم متألماً:

. كان عليّ أن أمنعها من السفر، وأحجر عليها حتى يبتعد أهلها.

حاول أن يرجع إلى البيت ليمتطي صهوة جواده ويعود بها، لكنّ كبرياءه منعته، وتذكّر أنها قَدْ هدّدت بارتكاب حماقةٍ بحقّ نفسها، فهي عنيدة كما خبِرها.

سارت به قدماه إلى بستان يعرف صاحبه، وجلس في ظلّ شجرة توت هرمة، وشرع يفكّر..

إنّه يحبّ زوجته حبّاً ملك قلبه وعقله، وأراد أن يبقى الطفل الوليد لديه، لأنه سيراها من خلاله، ولأنه سيبقى الذكرى الوحيدة المتبقّية لديه منها..

تذكر عندما كانت هاصميك تنادي ابنها: سورين. كيف كان يسارع بالردّ عليها قائلاً: إنه سوري. ليته كان سورين، وتبقى أمه إلى جانبه.

وا أسفاه! لقد رحلت. وكان يدرك تمام الإدراك باستحالة عودتها.. تذكّر ما همست به قبل رحيلها.. لقد قالت له: (الولد أمانة عندك. أحسِن تربيته. وعوّض حناني له بحنان امرأة تليق بك).

يا إلهي! ما أعظمها من امرأة! أخذ يضرب فخذيه بكفّيه، ويلطم وجهه بقوّة، ونشيجه يمزّق السكون، حتى غاب عن الوعي.

لم يفق أحمد من سباته إلاَّ عند أذان العصر، وصوت صاحب البستان يذكّره بصلاة العصر.

كان رأسه ثقيلاً مليئاً بالهواجس والظنون.. اسودّت الدنيا في عينيه. وعندما بدأ يمشي، أخذ يتمايل يمنةً ويسرة، ولا يكاد يرى شيئاً، فاصطدم بالشجر والحجر والبشر، حتى ظنّ بعضهم أن مسّاً من الجنون قَدْ أصابه.

عاد إلى البيت بخطىً ثقيلة، شاحب الوجه، أشعث الشَّعر، وكاد يتهاوى على عتبة الدار لولا سماعه صراخ الطفل، فانتفض، وهرول، وخطف الطفل من بين يدي أخته حميدة، وأخذ يشمّه، ويبكي معه..

قالت له أمّه بعد أن هدأ:

. إن الطفل يا ولدي لم يكفّ عن الصراخ منذ رحيل أمه.. حاولت النسوة إرضاعه فرفض المراضع، أعطيناه حليباً بقريّاً فرفضه، دلقنا في فمه نقيع اليانسون فلم يتقبله.. أرجوك يا ولدي، بحق أمّه عليك أن تأخذه إليها.. إن الطفل يذوب ببطء.. لا أريده أن يموت بين يدي.. أسرع به يا أحمد، فمازال في الوقت متّسع، لعل الله يحنّن قلب أمه فترجع، أو تكتب له الحياة معها..

كان أحمد يسمع كلمات أمه، وهو دامع العينين، وصراخ الطفل يتعالى، فلم يدرِ ماذا سيفعل! وحده الطفل كان يعرف أن اقتلاع الجذر مستحيل، وأنّ الدم لا يمكن أن يكون ماءً، وأن عبير الأم وعبقها لا يعادلهما في الدنيا أيّ شيء، وأن الظلمات الثلاث التي مكث فيها تسعة أشهر تناديه وتحثّه على المجيء.. الأم وحدها منبع السكينة والحب والحنان والطمأنينة.. الأم التي جعل الله الجنّة تحت أقدامها.. أمه التي آثرت أمّها، وضحّت بزوجها وابنها من أجلها.. يا للوفاء! الطفل رضعه من لبان أمه.. الطفل أدركه، وأبى إلاّ أن يترجم صراخه إلى فعل.. فكان ما كان..

أخذ أحمد يشمّ الطفل كلّ هنيهة، ويبكي مع بكائه، فتمتزج الدموع، وتتعانق الآهات والتنهّدات..

"إيهٍ يا طفلي الغالي..
وحدك من ترجم الآه في مسارب الدموع
لن تظلّ يا ولدي كلمةً مبهمة في سِفر التاريخ ولا في مهب الريح.
ستنتظركَ دهورٌ بابتهاج وسرور..
وستكون رايةً لعشب يموج ولزهور تفوح
أراك الآن خارج أسوار مملكتي أميراً وأنا الطريد

أمدّ إليك يدي بلهفة ولا أصل إليك

أي بني.. سترحل الآن لتداوي جناحك المكسور

وتترك أباك خلف كومة غيمٍ كطائر الرعد

ارحل بني.. استجمع ذاتك في رئتيك

وكن قادراً على نسْلِ خيطٍ من عذوبة صوت أمّك وأرسله إليّ.."

. أسرع يا أحمد.. أرجوك.. اذهب إليها إن كنت حقّاً تحبّها.. أنقذ الطفل يا أحمد.

امتطى أحمد صهوة جواده الأصيل، وحمل طفله في حضنه، ولفّه بعباءته، وسار يخبّ، فوصل القافلة قبيل غروب الشمس بقليل.. قطع أكثر من ثلاثين كيلو متراً دون أن يدري..

وكان الأرمن يجرّون أرجلهم وأجسادهم عيّاً وعجزاً، وكلّما تهالك واحدٌ منهم على الأرض حملوه، ورشّوا الماء على وجهه، ليتابع معهم مسيرة اللانهاية..

صاح أحمد بأعلى صوت:

. هاصميك.. هاصميك.

التفتت هاصميك بذهول إلى مصدر الصوت الذي اخترق قلبها بقوّة، فصاحت دون وعي:

. أحمد.. أحمد.

يا إلهي! ما الذي جاء به؟ هل أصاب الولد مكروه؟! ترجل أحمد، والطفل في حضنه يبكي بكاءً يمزق الأكباد..

وضع الطفل على الأرض عندما أقبلت إليه، واحتضنها بلهفة، وكأنه لم يرَها منذ سنين.

أخذت هاصميك طفلها بشوق وهو يبكي، وما إن ألقمته ثديّها حتى سكت وسكن إلاّ من نشيجٍ غير مسموع يهزّه من آونةٍ لأخرى وهو يمتص لبن أمه، وعينا أحمد تغوصان في عيني زوجته باشتياق..

ربّاه.. إن أعطيتَ فلِمَ تأخذ؟ وإن أخذتَ فلا تحرم.

ربّاه.. ابني وأمه ضيفان عندك يا الله.. يا من لا تضيع ودائعه إنّي أودعهما عندك..

ربّاه أنت القادر على أن تجمعني معهما، لا تتركني وحيداً، أجترّ القهر والحرمان، فأنت الكريم الجواد.. أكرمْني بهما، وارحمني وارحمهما.

أفاق أحمد من شروده على صوت طفله وهو يناغي أمه فتناغيه، حتى أخلد رأسه في حجرها، وتملّكه النعاس فغفا على صدرها متشبّثاً به.

. أصيل يا أحمد.. لن أنسى صنيعك هذا مدى العمر.

. أرجوك يا حبيبتي أن تعودي إلى بيتك، والله لن أهنأ بالعيش في غيابك.

. قلت لك يا أحمد تزوّج وانسَني، فلن أترك أهلي، أرجوك إن كنتَ تحبّني فارحل أنت وابنك قبل أن يستيقظ، وإن شئتَ اتركه لي، وأقسم لك بالله وبكل المقدّسات سيعود إليك إن أبقاه الله حياً.

. خذيه يا هاصميك كما أخذت قلبي وروحي وعقلي.

بكت هاصميك طويلاً على كتف أحمد وعانقته بحرارةٍ عناقاً ممزوجاً بالدموع، وقالت له ناشجةً:

. أرجوك أن تتزوّج غيري، واعلم أن الله لن يخذلك، لأنّك طيبٌ وصادقٌ ووفي.

رحل أحمد بعد لأيٍ، وكان يتلفّت كلّ آونةٍ إلى حيث زوجته وولده، ملوّحاً بيده، وكان يرى عن بعدٍ تلويحةً متعبةً تردّ عليه.

# (9)

لم يجرؤ أحدٌ ممن في المجلس أن يكلّم علي بك، وإن عرفوا سبب وجومه وكآبته.. كان يعتصر رأسه كلّ هنيهة، وعيناه الصغيرتان تحملقان في أعمدة سقف المضافة، وما حوته من أعشاش لطيورٍ لم تجد الأمان إلاَّ فيها.

وحده المختار من بدّد جوّ الكآبة، وقطع حبل الصمت عندما اقترب منه قائلاً:

. لقد آلمنا جميعاً ما حدث، أنت تأمر ونحن ننفّذ.. رفع علي بك رأسه الصغير، وقال بألم:

. لقد نقلوا /سعاد بك/ تأديباً إلى بغداد، واتّهموه بالتساهل وعدم إطاعة الأوامر، وجاءوا لنا بأقذر والٍ عرفته الولايات العربية على الإطلاق.. إنه /زكي بك الجركسي/.. مجرم خطير لا يحمل في قلبه إلاَّ الحقد والكراهية.. منذ يومين جاءت إلى الدير قافلتان من الأرمن، أمر بترحيل قافلةٍ إلى حلب، أما الثانية فأمر رجاله بأخذها إلى جبال (الولي) المحيطة بأحد أطراف المدينة، وقتلهم رمياً بالرصاص، وكان ينظر إليهم بمنظاره، ويتلذّذ بعملية الإبادة، حتى إذا ما تمت بإتقان تنفّس الصعداء، وجلس ينتظر قوافل أخرى.. فهل هذا الوضع مريح؟ وهل يمكننا المضيّ معه بسلام؟!

قام أبو ياسين منتفضاً، وسار عدة خطوات، حتى أصبح في مواجهة علي بك، وقال:

. أتحبّ أن أخلِّصكم من شروره وآثامه؟ أعطِني الأمر، وأقسم بالله أنه لن يرى الصباح.

. يا أبا ياسين.. إن قتلنا واحداً فإنهم سيقتلون منّا ألفاً. اسألني أنا. لم تحِن الفرصة بعد لعملية الاغتيال. علينا أن ننتظر أياماً، بل ربما شهوراً قليلة حتى نقرأ فاتحة الخلاص.. إنّي أخاف عليكم من الذئب المجروح يا إخوتي. كلّ ما أطلبه منكم المزيد من الحيطة والحذر، والحفاظ على حياة الأرمن الموجودين في بيوتكم.

. ماذا تقول يا أبا راغب؟! إن الأرمن الموجودين في بيوتنا أصبحوا أهلنا، وأقسم لك بالله ثلاثاً، سأدّمر بيت الوالي بمن فيه، إن تعرّضت أم ياسين أو أمها لسوء.

أقسم المختار، وأبو صادق الميكانيكي، وأبو سلطان الجابي، وأبو طارق، وعدد كبير ممن حوتهم المضافة يمين الوفاء.

قال أبو عدنان متهكّماً:

. ماذا فعل لنا ممثّلونا في مجلس المبعوثان يا أبا راغب؟!

. فعلوا كلّ الخير، تقدّموا بطلبٍ عاجلٍ إلى الباب العالي لنقْلِ والينا، وقالوا بصريح العبارة: إن الشعب ينوي قتلَه إن لم يُنقَل، وإن شاء الله سيتمّ هذا الأمر.

كانت الأيام صعبة، والدير تعيش حياة الحذر والقلق، فالوالي الظالم يفعل ما يحلو له، لم يستطع أحدٌ أن يسهر في بيتٍ آخر غير بيته، فلا مضافات، ولا أفراح، بل أتراح متجدّدة.. الكل محكوم عليه بالخوف والطاعة. المحال التجارية، وخانات الحبوب والأقطان مباحة للوالي وأتباعه، ولا أحد يردع الظالم عن ظلمه.

دعا علي بك لاجتماع عاجلٍ في بستان أبي عدنان بعد صلاة العشاء.. اجتماع أحيط بالسريّة والكتمان.

ذهب المناضلون فرادى، ومن طرقٍ متعرّجةٍ لا تثير الشكوك أو الظنون، وعندما التأم شمل الجماعة. قال علي بك متألّماً:

. لقد أعدم الظالمون مجموعة كبيرة من الثوار في دمشق وبيروت، وسورية تلتهب، وعلينا أن نتضامن معهم بكل ما أوتينا من قوّة.

رحمة الله على الشهداء الذين ينيرون لنا طريق الحرية والكرامة بدمائهم الزكية.. إنَّها ضريبة الخلاص يا إخوتي، وعليكم بالمزيد من الحيطة والحذر.

قال أبو ياسين:

. ألَمْ تردْكَ تعليمات للتحرّك؟!

. لا. وسأبلغكم بها فور ورودها، فجمعية العهد مازالت مجتمعة في مركزها الرئيس بحلب.

قال أبو طارق:

. ما أخبار ثورة الشريف؟

. مسألة وقت وستسمع أخبارها الطيّبة، وثمارها اليانعة ستعمّ القطر. اطمئن يا أبا طارق.. الأمور بخير.

قال أبو عدنان:

. أرى أن يكون البستان مقرّاً لاجتماعنا كلّ يوم خميس ريثما تنقشع الغمّة.

وهذا هو رأيي، وإن شاء الله الخلاص قريب.

وكان الخلاص قريباً، تنفّس المناضلون الصعداء، عندما أثمرت جهود ممثلينا في مجلس المبعوثان، وقرّرت الأستانة نقل زكي بك، وتولية عبد القادر بك، ليكون عام 1917 عام خير وبركة.

قال علي بك لجلساء مضافته:

. قاتل الله (زكي بك).. أتدرون أنه بثّ عيونه في الأيام الأخيرة له لمراقبة تحركاتي من الصباح إلى المساء؟! كنتُ أراهم في كلّ مكان أذهب إليه، لقد حاصرني ذلك المجرم حصاراً رهيباً، وأكثر من ذلك أنه طلب منّي بتهديد مبطن أن أشي بالوطنيين الثائرين مقابل إطلاق يدي في أمور اللواء، وعندما رفضت هدّدني بالطرد والنفي إن لم أستجب خلال عشرة أيام، فسخرت منه، وهددته بأنني سأتوجّه إلى الأستانة مع وجهاء اللواء محمّلاً بعريضة موقّعة من كافّة شرائح المجتمع معلنة فساد الوالي وطغيانه. ضحك وقتذاك وقال معتذراً: إنني أمازحك يا علي بك. قاتله الله كان ساديّاً يتلذّذ بتعذيب الآخرين حتى مع أقرب خلصائه.. إنه لا يثق بأحد، ويتمنى الموت للجميع. قال لي أحد حراسه وكان وطنياً: والله يا علي بك حاولت أكثر من مرة اغتياله، لأخلّص الجزيرة والفرات من شروره وآثامه، لكنك لم تعطني الأمر بذلك، وعندما قررت قتله دون إذن منك شفع له قرار نقله، وروى لي قصصاً تقشعرّ لها الأبدان عن عمليات تعذيب الأرمن، والتفنّن بقتلهم.. على كلٍّ الحمد لله الذي أزاح ذلك الكابوس عن البلد وأبنائه.

قال المختار:

. أخشى أن يكون عبد القادر بك مثله.

ردّ علي بك بصوت عالٍ:

. لا يا أبا عدنان. عبد القادر بك رجلٌ مثقّف ولطيف. أعرفه جيداً، وقد وافق على إصدار جريدة باللغتين العربية والتركية، سأجعلها منبراً حرّاً للأدباء والمفكّرين والوطنيين الأحرار بإذن الله.

وقف أبو أحمد الصباغ، وهو في حالة يُرثى لها، وقد أثقلته الهموم والمتاعب، فاقترب منه علي بك، واحتضنه، فأجهش أبو أحمد باكياً متمتماً:

. ولدي أحمد يا علي بك. أرجوك أنقذه. إنه يقتل نفسه.

. ألمْ يصْحُ بعد؟

. لا والله.. إنه يزداد سوءاً. لا يأكل إلاَّ ما يسدّ به الرمق، أهمل نفسه، وأطال لحيته، وصار يهذي في الحلم واليقظة، حتى اتّهمه الناس بالجنون. أرجوك قل لي ماذا أفعل؟

. يجب أن تزوّج ابنك بأسرع وقت يا أبا أحمد، وأنا على ثقةٍ بأن الزواج سيخرجه من تلك الصدمة.

. أزوّجه؟ ممّن؟!

. أرسله إلى مكتبي قبل صلاة الظهر، وسأناقش معه هذا الموضوع.

همّ أبو أحمد الصباغ بتقبيل يد علي بك. إلاَّ أن عليّاً أزاح يده بسرعة، وحال دون تقبيلها قائلاً:

. أستغفر الله.. لا يا أبا أحمد. أرجوك ألاّ تفعل ذلك ثانيةً، فأنا أخوك ورفيق دربك، وإذا لم أقف إلى جانبك في الملمّات، فمتى سأقف؟:

**عسى فرَجٌ يأتي به الله إنه  له كلّ يومٍ في خليقته أمرُ**
**إذا اشتدّ عسرٌ فارْجُ يسراً فإنه  قضى الله أنّ العسر يتبعه اليسرُ**

. إن شاء الله على يديك يأتي الفرج واليُسر.

. أهلاً بك وبولدك. أرسلك إليَّ. وسترى.

. هل أرافقه في المجيء إلى مكتبك؟

. لا مانع من ذلك، بل أراه الأفضل من أن يأتي وحيداً ويضعف أمامي. تعال معه. أريد أن أعزّز ثقته بنفسه.

التفت علي بك إلى وجه أبي ياسين، فرآه مطمئنّاً.

ابتسم وقال:

. كيف حال ياسين وأمه وجدته؟

. ياسين بخير، يحدّثني وأحدثه، ويلعب بقطع السلاح، ويبكي إن فارقها، وأمه تحسّن كلامها، أما حماتي فأمرها مازال محيّراً.

. ما المحيّر في أمرها؟

. إنَّها تخفي أمراً لم أتبيّنْه بعد.

ضحك المختار قائلاً:

. لم يقل لنا أبو ياسين، هل ولده يتحدّث معه بالأرمنية أم لا؟ أما حماته فأنا أخمّن أنها تفكّر بالزواج.

قال علي بك:

. اعتنِ بهم يا أبا ياسين جيّداً ُ، فهم أمانة عندك.

. والله يا أبا راغب لم أقصّر، ولن أقصّر إن شاء الله.

التفت علي بك إلى أبي صادق الميكانيكي وقال:

. لقد بلغني اتّساع ورشتك وسمعتها الطيبة.

. هذا بفضل الله وفضلك، وفضل الأرمن الطيبين.

. سمعتُ أنك زوّجت آرتين.

. بعد أن رفض تغيير اسمه ودينه تزوّج أرمنيّةً كزميليه.

. لكن كيف تمّ لهم ذلك والقافلة كانت مراقبة؟!

. ظلّوا ينتظرون القافلة، وعندما رأوها على الضفّة الأخرى، عبروا النهر بقارب صغير، واستطاعوا لقاء مبلغ من المال أن ينتقوا ثلاث فتيات منها، ثمّ عادوا بالقارب وبهنّ إلى الورشة سالمين.

. أبطال والله، وماذا فعلت لهم؟

. زوّجتهم للفتيات، ودفعتُ مهرهم، وزوّدتهم بكل مستلزمات الزواج وهم الآن في غاية السعادة.

. بارك الله فيك. هذا الخبر أسعدني كثيراً.

تقدّم علي بك من أبي سلطان، وقال باسماً:

. ما أحوال جابي بلديّتنا؟

. ولدي سلطان سعيد، وبإذن الله سيكون سلطاناً غير تركي.

ضحك علي بك وقال:

. وماذا يمنع أن يكون مثل السلاطين الأتراك إن كان عادلاً ورحيماً؟!

. لا يا أبا راغب.. أريده سلطاناً للعقل والرحمة، للعلم والمعرفة، للوفاء والإيثار.. أريده سلطاناً بأقواله وأفعاله.. أريده سلطاناً يحمي أخواته السبع ونسائي الثلاث من مكائد الدهر وصروف الأيام..

. إن شاء الله يا أبا سلطان.. إن شاء الله.

نظر علي بك في وجه أبي طارق، فرآه سعيداً، قال:

. في عينيك يا أبا طارق حكاية، أرجو أن تفصح عنها.

. والله يا أبا راغب، لقد جاءني أخي وصالحني، لكنه عاتبني لأنني نقلت إليك ما جرى بيننا.

. المهم أن الأمور سارت بهدوء، وأن المياه عادة إلى مجاريها.

. الحمد لله، وكل الشكر والتقدير لك يا علي بك.

. وطارق.. ما أحواله؟

. طارق كان بودّه الحضور لولا أنه تعب من السفر أما أحواله العائلية فهي ممتازة والحمد لله.

. وفّقه الله، قل له بأنني أتوق إلى رؤيته.

. إن شاء الله سيحصل ذلك.

قال المختار مستفسراً:

. أحد الأئمة عندنا أفتى بتكفير كلّ من يقف مع الفرنجة ضد الأتراك المسلمين، ويعدّ ذلك . إن حدث . خروجاً على الدين، فما رأيك؟

. مسكين هذا الإمام، سيدرك فيما بعد خطل رأيه وخطره، ومن ثم لا يحقّ لإمام مسلم أن يكفّر مسلماً صحيح أن بعض الأئمة مشبعون بالفكر السلفي، وأن الأتراك قَدْ جنّدوهم لخدمة مآربهم الخبيثة:

**أظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا**
**وله صاموا وصلّوا وله حجّوا وزاروا**
**لو بدا فوق الثريّا ولهم ريشٌ لطاروا**

هؤلاء يا مختار الدين الإسلامي الحنيف بريء منهم، ولا يمثّلون الوجه الحقيقي للشعب الفراتي العظيم.

قال أبو ياسين:

. يا أبا راغب.. منذ يومين قال لي أحد الضباط الأتراك . عندما جاء إلي لأصلح سلاحه الفردي . كلاماً يشي بقرب الخلاص.

. أجل يا أخي، فالقوات التركية تقهقرت في كلّ مكان، لكن لن يتحرر الوطن العربي، بل على العكس سيتجزّأ إلى دويلات يخضع قسم منها لفرنسا وقسم لإنجلترا، وبقية الدويلات إلى الدول الحليفة.. الوضع سيصبح خطيراً يا أبا ياسين، وسبق أن قلت لكم إن الأيام القادمة لن تكون مريحةً أبداً.. محَنٌ وهموم ثقال.. وغداً ستقرؤون في صحيفة (الجول) مقالات وقصائد ربما تعترض طريق المناضلين.. ستقرؤون ربما لآخر مرّة خطورة ما يكتب الأدباء والثوار.

. ماذا تعني يا أبا راغب؟

. أعني بأن الطريق لن يكون ممهّداً لأقلام الثائرين، وأن دروبهم محفوفة بالمخاطر.

وحدث ما توقّع علي بك. لقد غُرست الأشواك في أيادي الأدباء والثوار، والعلماء المتنوّرين، لكنهم استطاعوا بعد جهدٍ جهيد اقتلاعها، وكلهم عزم وتصميم على المضيّ قُدُماً نحو التحرير.

تسلّلت الصحيفة إلى قلب الأستانة، ودقّت الباب العالي بعنف، وخلعت عمامة الصدر الأعظم، وأشاعت البلبلة في صفوف السلاطين، وعمّقت شرخَ الحدث، فكان هناك تياران متناقضان تقاسما تحليل الواقع ورسم ملامحه وأبعاده. قسم كان يصرّ على الخلافة الإسلامية بكلّ عجرها وبجرها، وهذا ما أراح الولاة والقادة الأتراك، والقسم الآخر كان يرى ضرورة الخروج من الرداء التركي، والمعطف الأوربي، وكانوا يحلمون بالخلافة العربية. وكان لكل قسم أنصارٌ ومؤيّدون، وهذا ما أثار حفيظة الأتراك، فضيّقوا الخناق عليهم إلى درجة أن هاجر بعضهم إلى دمشق وحلب ليكونوا باستقبال الفاتحين العرب الذين علَت بشائر نصرهم سماء الوطن العربي.

# (10)

كان علي بك ينظر بإشفاق إلى ما آلت إليه حال أحمد الصبّاغ.. مازالت عيناه دامعتين، ونظراته ساهمة، وجسده يرتجف دون برد.. يضغط بأسنانه على شفته السفلى كلّ آونةٍ حتى تكاد تتمزّق، ثم ينكّس رأسه، ويرفعه بتثاقل.. لقد فقد الأمل من عودة زوجته وولده، كان كلّما نظر إلى صورتهما التي أبدعها فنان ديري بقلمه الفحميّ.. يجهش بالبكاء حتى تقرّحت أجفانه، وكان يلوم نفسه ويحمّلها مسؤولية رحيلهما..

همّ أكثر من مرّة بالسفر إلى حلب، ليبحث عنهما، لكنه لم يزرْ حلب يوماً، وخشي على نفسه من الضياع، وفي آخر مرّة صمم على السفر مهما كانت العواقب، لكنه تراجع من جرّاء تعنيف والديه وغضبهما منه، فآثر الاعتكاف والبكاء على آثارهما في البيت.

كان يرى الدنيا ومن فيها سراباً خادعاً، ووهماً زائفاً، لكن خيالهما ما غاب يوماً عن عينيه، يرى طيفهما من بعيدٍ يلوّحان له، فيهرول بكلّ الشوق الكامن فيه، وعندما يختفيان عن ناظريه، يجلس على الأرض، ويهيل التراب على وجهه وجسده، ناشجاً متهالكاً، حتى استدرّ الشفقة والعطف من وجوه السابلة..

قال علي بك بعد طول تأمّل وتفكير:

. اسمع يا أحمد.. لقد أرسلت في طلبك، لأناشدك الله أن ترحم نفسك ووالديك.. النساء كثيرات، وسيلدن لك أكثر من طفل تقرّ به عيناك. أرجو أن تثق بالمستقبل المشرق الذي ينتظرك، وأن تهتم بنفسك وبأبيك الذي ما عرف الراحة منذ بدء هذيانك، واعلم أنني لن أسمح باستمرارية هذه الحالة لديك.

رفع أحمد رأسه بتثاقل، وقد ترقرقت دمعتان على عينيه، وقال بصوتٍ خفيض:

. أعطني حلاً يا علي بك؟

. الحلول كثيرة جدّاً يا ولدي، وأيسرها أن تتزوج

. أتزوّج بعد أم سوري؟ محال ذلك.

. هذا وفاء أقدّره فيك وأجلّه، ولكن للضرورة أحكام

**كنتُ من كربتي أفرّ إليهم فهمُ كربتي فأين الفرارُ؟**

يا علي بك، والله لن أنساهما ما حييت.

. اسمع يا بني:

**إذا ثارت خطوبُ الدهر يوماً عليك، فكن لها ثبْتَ الجَنانِ**

هكذا أوصانا آباؤنا وأجدادنا.. يجب أن نصمد لا أن نتهاوى ويتملّكنا الجنون من أوّل خطب.. أنت رجلٌ وأهلُكَ بحاجةٍ ماسّة لعطائك، والوطن الجريح ينتظر منك الكثير..

. لكنْ، أين أجد مثل أمّ سوري؟

. ستجد أفضل منها إن شاء الله.. إن أردتَها أرمنية فالفوج القادم غداً، سأرافقك إلى الشاطئ رغم المنع والتشدّد، وستنتقي أجمل الفتيات، وإن أردتَ من بنات مدينتك، فكثيرات لا يبحثن إلاَّ عن الستر، ويتمنّين شاباً مهذّباً مثقّفاً وصنائعياً دؤوباً مثلك. ما رأيك بابنة المختار؟ سعدى شابة ناضجة واعية، رأيتها منذ عدّة أيام عندما زرتُ أبا عدنان، فأدهشني جمالها ومنطقها، ولو كان لديّ ولد عزَبٌ ما ترددتُ لحظة في خطبتها له.

ما رأيك بابنة أبي سلطان؟ سلطانة شابة جميلة، ومحدّثة لبقة، كلّ شهر تختم القرآن الكريم، كنت والله أتشهّى رؤيتها والحديث معها كلّما زرتُ أبا سلطان.. كانت تسألني دائماً عن آخر التطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية وتحاور أفضل من كثير من الرجال.

قال أبو أحمد فرحاً:

. ونِعمَ الرأي رأيك يا أبا راغب، ولو أني أميل كثيراً لابنة المختار، فالمختار رجل طيب وشهم ووطني وثري أيضاً.

قال أحمد وهو يهزّ رأسه أسفاً:

. والله لو تزوّجتُ أجمل البنات، فلن أستطيع أن أحبّها كما أحببتُ أمّ سوري.. طوال عام ونيّف كانت تسهر على راحتي وصحتي، وتخدم أهلي.. تفهم

ما أريد قبل أن أتفوّه بكلمة واحدة.. لا تنام قبل أن أعود، ولا تأكل قبل أن أمدّ يدي إلى الطعام، ولا تشرب قبل أن تعرض الماء عليّ وعلى أهلي.. آه يا علي بك.. لو رأيتَها كيف كانت تصلّي لله، وكيف كانت تدعوه وتناجيه لعذرتني والله.

. يا أحمد كن واقعياً. أرجو ألاّ تعيش في الخيال، وتغرق في بحر الماضي. صحيح أنّ ذكرى زوجتك عطر، لكن لو كانت تحبّك حقّاً لَما آثرتْ عليكَ أحداً في الدنيا، حتى لو كان أمها وأختها. أنا لا أشكّ أبداً في إخلاصها، لكنها رحلت وتركتك وحيداً. أرجو أن تقدّر مسؤوليتي تجاهك، واعلم أنني لن أدعك تعيش بظنونك وهواجسك إلى ما شاء الله.. أرجوك يا ولدي أن تعيش الراهن بكل ما يحمل من مسرات وآلام. أما سمعت:

**ومن عاش في الدنيا فلا بدّ أن  يجد من العيش ما يصفو وما يتكدّرُ**

عليك يا ولدي ألاّ تستسلم وترفع الراية البيضاء من أوّل هزيمة حلّت بك.. أمامك وقتٌ عصيب.

نحن اليوم في ظل حكم الأتراك، وغداً ربما مع البريطانيين أو الفرنسيين، أو كليهما معاً، والله أعلمُ من سيأتي بعدهما.. أنت يا أحمد رجل ناضج، والوطن بحاجة ماسّة إليك، كما هو بحاجةٍ إلى كلّ جهد، يطلب من أيّ وطنيٍّ غيور، ولتعلم أن دورك في الحياة السياسية مهم، وهذا يتطلب منك رباطة جأش، ومزيداً من الثبات، وتجاوزاً للماضي المؤلم.. إنّ لك يا أحمد دوراً أراه مهمّاً في حركة النضال ضدّ قوى الاستعمار والاحتلال، فلا تبخل على وطنك بما تملك من مواهب وقدرات.. صدّقني يا ولدي إنّ الشباب في الخليّة الثورية لا يتذكّرون نساءهم ولا أولادهم قدْر ما يتذكّرون حاجة الوطن إليهم.. يا أحمد، الحياة لن تنتهي برحيل امرأة وولد، ولا بأبٍ وأم وأخ.. الحياة بحر متلاطم الأمواج. البقاء للأقوى والأصلح والأتقى دائماً.

أرجوك يا ولدي أن تعي كلّ كلمة قلتها، فأنا والله أحبك مثل ولدي، كما أحبّ أباك هذا الجالس إلى جانبك، والذي أصبحت حالته تقطّع نِياطَ القلب.. ليتك رأيته البارحة في المضافة وهو يبكي كطفل صغير من أجلك.. أرأف به أرجوك، وارحم أمّك التي لم تنم ليلة هانئة كبقية النساء منذ هذيانك وصيحات الأولاد وهم يعدون خلفك، ويرجمونك بالحجارة قائلين: جاء المجنون.. ركض المجنون.. اختفى المجنون.. كنت ولا شك تسمع جيداً كلّ ما يقال عنك وتتجاهل أقوالهم، أليس كذلك؟

هزّ أحمد رأسه عدّة مرات، ثمّ قال بهدوء:

. لا يهمّني ما يقوله البشر عني!

. لا يا أحمد. كلام الناس ألسنة الحق.. يجب أن تعي جيّداً كلّ ما يقال، وتفكّر فيه.. أرجو أن تثبت للناس أنك عاقل ومناضل شريف، ولست أبلهَ أو مجنوناً كما يتصوّر بعضهم.

صمت أحمد طويلاً، ثم ما لبث أن رفع رأسه عالياً، ووقف، ثمّ تقدّم نحو علي بك، وعانقه، وبكى على كتفه طويلاً، وعلي بك يربّت على ظهره قائلاً:

. أفرغ عبراتك يا ولدي، وارحمْنا.. أذكرك مرّة أخرى بحاجةِ الوطن إليك قبل أي حاجة أخرى.. نحن يا أحمد مازلنا نعيش مرحلة حرجة، وواجبنا أن نسخّر كلّ إمكاناتنا وقوانا كي نستطيع تجاوز المحنة، ويؤسفني أن أقول لك إنّك كنتَ بعيداً عنّا، منشغلاً بحب زوجتك وولدك، وهما عندك بعد الله.. كان من الواجب عليك أن تكون متقدّماً صفوف المناضلين مثل أبيك، وان تتحمّل مسؤولية المرحلة الصعبة التي نعيش في دوّامتها جميعاً.. لن أسمح لك أن تظل على هذه الحال المُزرية، والاّ كنتَ غير جدير بالرعاية والعناية. ستحضر مجلسي مع أبيك، وتتعرّف على رجال النضال، على شباب نذروا أنفسهم من أجل الوطن، وهي مناسبة أيضاً لنخطب لك الليلة سعدى بنت المختار، وسنفرح بك، ونقيم لك الاحتفال اللائق، فما رأيك؟

جفّف أحمد دموعه بمنديله القطني، وقال:

. كما تشاء يا علي بك وسأكون عند حسن ظنّك بي.

ثم اتّجه نحو والده الذي كان يبكي فرحاً، فقبّل يده، وعانقه ناشجاً.

قال علي بك:

. أريدك يا أحمد أن تأتي الليلة بأبهى حلّةٍ إلى المجلس مع أبيك.

ثم أخرج من دُرْج طاولته مالاً دسّه في جيبه، ولم تُجْدِ محاولات أحمد عن عدم قبوله أمام إصرار علي بك الذي قال له:

. هو مبلغ بسيط لتشتري اللباس اللائق، واعلم أنني لن أتخلّى عنك ولا عن أبيك ما دمتُ حيّاً، وسأدفع الليلة مهرك ذهباً خالصاً، وسيشهد رفاقك فرحك.. ستكون الليلة يا أحمد متميزة بحضورك.. هيّا يا ولدي، أريد أن أراك دائماً بخير وسعادة.

# (11)

أبي المختار إلاّ أن يكون حفل عقد قران أحمد على ابنته سُعدى في بستانه الكبير...

سعدى لم تكن فتاةً عادية .. كانت رائعة الجمال، طويلة، آسرة، في وجهها سُمرة الأرض، وعلى جسدها المكتنز ظلال الغَرب والطرفاء، وفي عينيها العسليتين طعم الشهد، وفي شلاّل شعرها الفاحم عتمة الليل وأسراره لم تكن لتوافقِ على أحمد لولا رؤيتها حاله بعد أن فارقته هاصميك .. كانت تشفق عليه، وتكبرُ فيه هذا الوفاء، حتى تمنت من الله أن يهبها زوجاً وفيّاً مثله ..

لأول مرة في حياتها تضع الأصبغة على شفتيها وجفينها بفعل ترفندا وأمها شاكي اللتين أشرفتا على زينتها وخياطة ثوب عرسها الأبيض الموشّى بالورد، حتى إن أبا راغب لم يعرفها إلاّ بعد لأي عندما مثلت أمامه، وكان معجباً بها وبفصاحتها وحسن إصغائها وسرعة بديهتها، كذلك أحبّها كلّ الأرمن الذين يعملون في مزرعة أبيها صغاراً وكباراً، وذكوراً وإناثاً، وكانوا يقلّدونها أطواقاً من الورد والريحان كلما جاءت إلى البستان ... لقد احتلّت سعدى مساحةً كبيرة في قلوبهم منذ أن بدأت تعلّمهم اللغة العربية، وتمنحهم جوائز قيمّة عندما ينجحون في التعلّم .

كان من بين الحضور أبو صادق الميكانيكي وعماله الأرمن وزوجاتهم .. آرتين وزوجته شاميران، آغوب وزوجته أناهيت، ديكران وزوجته أستخيك.

قبّلتها شاميران قائلة:

يا إله الأرض والسماء، والله أنت يا سعدى سميراميس وليس أنا.

ثم همست في أذنها أستخيك قائلة:

أنت والله نجمة في السماء وبزوغ الشمس لا أنا.

احتضنت يدها أناهيت قائلة:

أنت والله آلهة الحب قبل ميلاد السيد المسيح لا أنا.

أما النساء الأرمنيات اللاتي يعملن في البستان، فقد فرشن لها طريقها بالورد والرياحين. صحيح أن هاصميك كان لها موقع كبير في قلوبهن، لكنّها رحلت بلا عودة، وكان عليهنّ أن يمنحن سعدى الموقع الشاغر حبّاً بها، وسداداً لفضل أبيها عليهن، وعلى الأرمن الذين يعيشون في حمايته ورعايته.

جرى احتفال رائع في بستان أبي عدنان .. نحرت الخراف ، وتعالت أصوات الزغاريد، وحمى وطيس الدبكة التي شارك فيها الأرمن والعرب.

كان أحمد يجلس إلى جانب أبيه سعيداً، وكان علي بك مستغرقاً في الضحك لعدم إتقان الأرمن حركات الأرجل وانحناء الجذع، وكان عازف المزمار ينحني باستمرار أمام علي بك والآخرين، فيعلّقون بعقاله وريقات نقديّة، لينهض من جديد ويلهب الدبكة.

وقف علي بك وصافح الأرمن والحاضرين واحداً واحداً، وقبل أن ينصرف وزملاؤه همس ( مردخيان ) رئيس العمال في البستان في أذن علي بك كلمات هز لها رأسه موافقاً، ودخل غرفة الضيافة فتبعه، ولحقة المختار وأبو أحمد وأبو صادق وأبو سلطان وأبو ياسين وأبو طارق وجلسوا. قال القس مردخيان بكل ثقة ورجولة:

– علي بك .. لا يمكننا البقاء هنا لنأكل ونشرب .. إننا نودّ المشاركة مع مجموعات المقاومة .. فباسمي وباسم الأرمن، ليس في البستان وحده، وإنما في أنحاء اللواء كافة نرجو الموافقة.

. ابتسم علي بك، ووضع كفه على كتف مردخيان، وقال:

. اسمع يا أخي .. إنني باسم المقاومين العرب كلهم أشكرك وجماعتك، وأرجو أن تبتعدوا عن هذا الطريق الشائك، خوفاً عليكم من أمور لا يحمد عقباها.

. لكننا أعددنا خطة للتخفّي، ولن يعرفوا من نحن، ثم أحب أن أخبرك أن نساءنا لديهنّ الرغبة نفسها، فلا تقتل فيهنّ الحمية والنخوة، أرجوك.

. صدّقني أيها القس بأننا سنلجأ إليكم إن احتجنا لمساعدة أو مؤازرة، أما الآن فنحن بخير إن شاء الله.

خرج علي بك مزهوّاً بمبادرة العمال الأرمن، وكان طوال الطريق يفّكر مليّاً بكل كلمة قالها القس مردخيان، وتذكر من قبل ما قاله أبو ياسين عن رغبة زوجته وأمها بالتطوع.

قال المختار وهو يوقف حصانه عن السير، ملتفتاً إلى علي بك:

. لِمَ لا نستعين بالأرمن في بعض الأمور الخدمية والصحية؟!

أجاب علي بك بحدّة:

. لا يا أبا عدنان. قلت لكم ليس الآن، سيأتي دورهم لاحقاً.

سار علي بك، وسار وراءه المختار ورفاقه، وكان ثمة سؤال ملحاح في رأس علي بك يدور ولا يهدأ: تراها سداداً لدين طوّق أعناقهم ؟!

كان الرجال الذين يسيرون خلف علي بك قَدْ أدركوا بحسِّهم سرّ صمته، فلم ينبسوا ببنت شفة، حتى إذا ما قطعوا شوطاً طويلاً، تنحنح المختار قائلاً:

أين شرد قائدنا ؟

ابتسم علي بك قائلاً:

. لقد سرّني بستانك كثيراً، جمالاً وترتيباً وخيراً وفيراً، والأكثر من ذلك كلّ العاملين فيه.

. كلّ ذلك بفضل الله، ثم فضلك وفضل الأرمن.

. الأرمن طيّبون أوفياء، وأرجو من الله أن يسدد خطاهم، ويتم عليهم نعمته .. لكن من أوحى لهم بحياتنا الماسّة إلى عطاءاتهم.

. يا أبا راغب .. هم أذكياء وعمليون، ويشعرون أنهم قادرون على فعل ما لم نستطع فعله، لذا ابتكروا وسائل وأساليب لا تخطر على بالنا أبداً.

. لكنني أخاف عليهم كثيراً، وأنا حريصٌ على حياتهم .. إنهم أمانة عندنا، أنسيت ؟!

. لا .. لم أنس

. قال أبو ياسين والحماس يتملّكه :

. تصور يا أبا راغب أن أم ياسين وأمها أصبحتا خبيرتين في إصلاح السلاح وصنع الذخائر والمتفجرات، ورجالنا لا يمتلكون هذه الخبرات، ونحن بأمس الحاجة إليها أم ياسين وأمها خبيرتان في إسعاف المرضى وتضميد الجراح، ونحن بحاجة إلى خبرتهما. أم ياسين وأمها خبيرتان في التخفي ونقل المؤن والمستلزمات الضرورية للثوار، ونحن بحاجة ماسة إلى هذه الخبرة. أرجوك يا أبا راغب للمرة الثانية دع الأرمن يمارسوا رغبتهم الصادقة في مساعدة الثوار.

– لا أستطيع أبداً يا أبا ياسين .. لو اكتشف الأتراك نواياهم أو أمسكوا بواحد منهم وهو يمارس تلك الرغبة، لحلّت بهم كارثة، وليس من حقنا أبداً أن نعرّضهم لانتقام الأتراك. عندما يرحل الجيش التركي عن أرضنا، سيكون لنا رأي آخر، وسنلبّي رغباتهم. والآن هيّا..

اتّجه علي بك نحو الساقية الكبيرة التي تحاذي الفرع الصغير للنهر، وفي ظل شجرة توت هرمة توقف، فوقف الجميع ...

تأمل الشجر والنهر وشمس الغروب وهي تخلع رداءها الأرجواني بخجل لتدخل خيمة الليل، ثم قال:

. اسمعوا يا إخوتي، قَدْ يكون الليل طويلاً، وعلينا أن نكون ضياءه حتى لو كانت الأضواء خافتة ...

علينا يا إخوتي ألا نستعجل انبلاج الفجر، فالصباح سيتنفّس لا محالة، ولا أريد منكم أكثر ممّا هو معدٌ لكم، لا أريد أن أثقل كواهلكم بأحمال قَدْ تقصم ظهور بعض منكم. يجب أن نلعب اللعبة بمهارة وتخفٍ ويقظة وحذر ... أعداؤنا ليسوا هيّنين، ولا متغافلين. البارحة كان الوالي يقول لي كلاماً مبطناً .. هل تصّدقون أنه يعرف كلّ شيءٍ عنا ؟! ردد على مسامعي بعض ما قلته لكم مرةً في المضافة عندما اختلفتم في مسألة الوقوف إلى جانب الحلفاء أو المحور.. هناك من يسترق السمع إلىأحاديثنا، فكونوا يقظين، ولولا التوجيهات إليهم باسترضائنا لفعلوا بنا الأعاجيب. أنا لست خائفاً على نفسي والله بقدر ما أنا خائف عليكم .. على أبناء بلدي.. على وطني.

قال أبو ياسين :

. أفهم من كلامك يا أبا راغب أننا سنوقف تحركاتنا في الريف والمدينة ؟

. لا. لا يا أبا ياسين، إنما قصدت مضاعفة الحيطة والحذر.

. لا تخف علينا أيها القائد العظيم والأب الرحيم. أشعل المختار لفافة تبغ ونفث دخانها وسعاله بآن واحد، ثمّ هدأ، ونظّف أنفه وفمه بمنديلة القطني، وقال:

. لن تتوقّف الثورة، وسندعم لجاننا في الريف والمدينة، وإن احتجنا، فأرى أن نطلق الوافدين من غير الأرمن للقيام بواجباتهم.

. صاح علي بك محتداً:

. يا مختار .. كلّ الوافدين من أرمن وأكراد وشركس و جاجان ومسيحيين باختلاف طوائفهم ومذاهبهم، وحتى اليهود، هم أمانة في أعناقنا، والواجب ألا نستغل ضعفهم وقلّة عددهم من أجل مآربنا.

. لكن الوطن للجميع، وهو بحاجة إلى جهودهم وعطائهم.

. صحيح ما تقوله، ولكن ليس الآن. افهمني يا مختار. أرجوك.

تنحنح أبو صادق الميكانيكي، واقترب من علي بك مبتسماً، فابتسم علي بك وقال :

. إن في عينيك حكايةً يا أبا صادق؟ يا أبا راغب إن ورشتي والحمد لله غنيّة بمواردها ورجالها، وكما قلت سابقاً الفضل لله أولاً ثم للأرمن ثانياً .. أريد أن أذيع على مسامعكم سراً أقوله لأول مرّة ..

اقترب الرجال، وتحلّقوا حول أبي صادق، وأصاخوا السمع له. قال علي بك:

. أرجو أن تفصح مع الإيجاز، لأن الليل أدركنا..

. أجل .. اسمعوا: لقد صمم آرتين وأغوب وديكران سلاحاً لا يطلق النار، إنّما يقطّع الأوصال، وقد أجروا اختباراً على حمار أجرب نبذه أصحابه، وكانت النتيجة إيجابية، وقد استطاعوا حتى الآن تصنيع أكثر من عشرين قطعة.

ضحك علي بك طويلاً، وقال:

. يا أبا صادق إنَّها ( الدّوسة) وهي معروفة، ولا تصلح إلاّ للحيوانات.

. أعرف ذلك، ولكنهم طوّروها بحيث أصبح لها مخالب وأذرع كالأخطبوط، وعندما تراها ستعجب بها، وتثني على مخترعيها، فلها طريقة تختفي بها ولا أحد يراها.

. أخشى يا أبا صادق أن يقع في شرِاكها الأصدقاء .

. لا تخف، نحن نعرف أين سنضعها، ولا نحتاج إلاّ إلى أمر منك.

. بارك الله فيك، سيكون لك ذلك عندما تحين الساعة، أما الآن هيا بنا إلى المضافة لنشرب القهوة المرّة، ونتحدث عن آخر الأخبار.

# (12)

لم يهدأ أبو ياسين طيلة الشهرين الأخيرين من عام 1917.. فقد كان هو وزوجته وأمها يصنعون الذخائر والمتفجرات، ويهيّئون الأسلحة، وقد استطاع بمقدرة فائقة أن يوصل كلّ ما طلب منه إلى أحياء المدينة والريف القريب، ثم امتدّ نشاطه حتى وصل إلى البوكمال، وكان يتخفّى على هيئة بائع جوّال أعرج، يسوق حميره من مكان إلى آخر، دون أن يلفت النظر إليه ...

استطاع الثوار من خلال ذخائره وأسلحته أن ينفّذوا عمليات بطولية رائعة أقضت مضاجع الأتراك، وكان تحسين بك مدير المال يرسل الجباة على صهوات جيادهم المثقلة بالمؤن لتوزيعها علىأسر المناضلين وسراة القوم، وفي الوقت نفسه لحماية أبي ياسين إن تعرض لسوء ...

أما علي بك فكان يشرف بنفسه على كلّ عمليات الثوار، وقد عيّن المجلس الثوري أحمد الصّباغ مسؤولاً مساعداً في غرفة العمليات، واضطلع أبو صادق الميكانيكي بنصب الفخاخ بأماكن تم تحديدها بدقة، وكان أبو سلطان رجل استطلاع ناجحاً، وأبو طارق يجمع التبرعات من أجل تمويل العمليات الثورية، أما المختار فكان يبثّ الإشاعات في كلّ مكان حول هزيمة الأتراك في المناطق والنواحي والقرى، وكان لإشاعاته المحكمة أثر كبير في بثّ الهلع بنفوس الحامية التركية ..

كان الجميع يداً واحدة، جعلوا الأتراك يستغيثون، ويبدون مسالمةً مكشوفة، وعندما جاءت قافلة من الأرمن لم يرحل منها أحد إلى حلب أو بيروت، فقد تمّ استيعابها في المدينة وحدها أمام أعين الأتراك دون أن ينبسوا ببنت شفة، حتى أصبحت تعجّ بالأرمن، وكان التجار والإقطاعيون يؤازرون الأهالي باحتضانهم، والزواج من فتياتهم، فأخذوا أسماء العائلات الديرية.

قال علي بك بعد أن تنفس الصعداء: تصوروا أن طفلين بقيا من كلّ القافلة / طفل وطفلة / مات أبواهما في الطريق، أخذهما عبد الجاويش وأخوه علي، وسجّلاهما في عائلتيهما، جزاهما الله كل خير ..

قال أبو ياسين:

. الحمد لله الذي كللّ مساعينا بالنجاح.

كان الجميع فرحين إلا أحمد الصبّاغ الذي لم تفارق الكآبة ومسحة الحزن وجهه .. كان يرى في وجه كلّ فتاة أرمنية صورة امرأته، وفي كلّ طفل صورة ولده، وكان علي بك يدرك سرّ حزنه وكآبته، فيبدّدها بسرعة عندما يذكر له بأن الفرج قريب ،وأن اليأس تملّك الوالي وجنوده.

قال أبو سلطان دَهِشاً:

. لم أكن أصدّق ان الأتراك كانوا يلوذون بالفرار هرباً من كلّ ظلّ يتراءى لهم.

قال علي بك:

أصدر الوالي أمراً بإطلاق سراح السجناء، وسيخرجون في صبيحة الغد، وعليكم أن تستقبلوهم بالحفاوة والتكريم. دعوا نساءكم يزغردن ويوزعن الحلوى أمام السجن الكبير، ولا تخشوا أحداً.

قال المختار بعد أن لف عباءته حول جسده وكوّر جسمه بداخلها:

. هل السبب قوة ضربات الثوار، أم تقهقر القوات التركية في كلّ مكانٍ وطئته أقدام الجيش العربي ؟

. هما سببان من أسباب كثيرة، ربّما رغبتهم في حقن الدماء، وكسب ودّ الجماهير، وقد يكون السبب تعيين / حلمي بك / والياً جديداً على لواء الزور، وهذا الوالي . كما بدا لي . عاقل حكيم.

قال أبو ياسين:

. إن كان عاقلاً حكيماً فليسارع بالرحيل عن أرضنا، وإلاّ فسوف نجعله مجنوناً والله.

ابتسم علي بك قائلاً:

. أقرأتم ما كتب المناضلون في جريدة الجول هذا اليوم ؟ اقرأ يا مختار بعض عناوينها.

أخرج المختار نسخة من الجريدة، وأخذ يقرأ بصوت عالٍ مقالة علي بك، ومقالةً للشيخ محمد سعيد، وأخرى لتحسين بك، وقصيدة للشاعر الفراتي ...

. قال أبو سلطان:

. عجبي من الأتراك ! وقد قرؤوها بالتركية، لماذا لم يتّخذوا أي إجراء مضاد ؟

ضحك علي بك، واقترب من أبي سلطان قائلاً:

. لقد اتّخذوا إجراءً مؤقتاً، وهو إغلاق الجريدة، لا أعلم الإجراءات الأخرى متى ستتم.

لقد دقّ علي بك ناقوس الخطر، الجريدة أغلقت، لكنّ أحداً لم يُعتقل، والثوار على أهبة الاستعداد للانقضاض على الحامية التركية عندما تدقّ ساعة الصفر.

الجيش العربي يدخل حلب بعد دمشق، والقوات البريطانية تصل إلى /عانة/، ولا أحد يأتي إلى دير الزور .. ما السبب؟ لا أحد يدري!

الوضع مريب، والشكوك تتضاعف، والثوار في يقظة وحذر، والوالي التركي يتدارس الوضع الخطير مع أركانه ..

أكثر من ألف وخمسمائة بين جندي وضابط تركي على أهبة الاستعداد لتنفيذ ما يوكل إليهم من مهام تقررها القيادة التركية، وحلمي بك يطلب منها البقاء في الثكنات وعدم التحرك.

جلس الوالي حلمي بك يعتصر رأسه، يريد حلاً لمعضلة مازالت تكبر دون أي إشراقة أمل أو علاج ناجع. أمر حلمي بك أن يجتمع بكبار قادته وطلب أن ينضمّ إلى الاجتماع رئيس البلدية، وعضو البرلمان محمد بك، ومدير المال، والقضاة على وجه السرعة.

التأم شمل الاجتماع بعد صلاة الظهر، وبدا الوالي مهموماً، يهرش جلدة رأسه كلّ هنيئة .. خطا خطوات غير متزنة، ما لبث أن غادر مكتبه إلى قاعة الاجتماعات. شرح للمجتمعين الموقف العسكري والسياسي في المنطقة بعد خروج القوات التركية من سورية والعراق عدا لواء الزور، وقال إن لديه احتمالاً قوياً لهجوم على قواته من أطراف عربية أو إنكليزية، وليس لديه قوات مساندة، وإن ما حدث لقواتنا على يد المتمردين لهو دليل أكيد على صدق هذا الاحتمال.

نوقش الأمر مطوّلاً، وتم ترجيح رأي الانسحاب التركي من لواء الزور بصورة مؤقتة، وتكليف رئيس البلدية بإدارة شؤون اللواء ..

بسرعة عجيبة جمعت الوثائق والمستندات، وتم إرسالها إلى / أورفه /، وبعد أيام غادرت القوات التركية دير الزور، واحتفل أبناء اللواء بيوم السادس من تشرين الثاني عام 1918، وعدّوه عيد الخلاص

العيون ترقب بحذر شديد الموقف الصعب الذي يمر به لواء الزور، والهلع الكبير الذي اقتحم حصون المحتل وهو ينسحب من دير الزور. وانقسم الناس

ثانية بين مؤيد لبقاء الأتراك المسلمين، ومعارض لهم. بل وجدت هذه الفئة أن الدول الأوروبية تحمل في احتلالها عناوين مهمة أبرزها: الحرية و الديمقراطية والتنمية .. وقد أكّدت هذه الفئة على أنّ مقاومة الاحتلال الأوروبي أسهل بكثير من مقاومة الاحتلال العثماني الذي حكمنا باسم الدّين.

كان أبو ياسين متأثراً بأفكار تحسين بك الاشتراكية، التي وجد فيها خلاصاً لكل المقهورين والمعذبين في الأرض، وكان الجدال مستمرّاً بينه وبين المختار أبي عدنان الذي يرى في هذه الأفكار إلحاداً وتبعية، وانقسم المناضلون إلى مؤيّد للمختار ومعارض له.

كان المثقفّون يرون في أفكار أبي ياسين نوراً يضيء لهم دياجير عتمة الطريق، وكان المختار واتباعه يرددون بحماسة:

. تبّاً لليهود الذين صاغوا أفكار الشيوعيين في روسيا !

قال المختار لأبي ياسين عندما احتدم النقاش:

. يا أبا ياسين .. أتعرف أصل / ماركس وأنجلز/؟

. لا يهّمني أصلهما وفصلهما، ما يهمّني فكرهما المتنوّر. نحن لم نسأل عن أصل الخوارزمي وابن سينا ونفطوية وسيبوية والفارابي وزرياب، كان كلّ همنّا أن ننهل من أدبهم وعلمهم وفنّهم.

. لكن هؤلاء أسلموا، وأصبحنا جميعاً بنعمة الله إخواناً.

. يا مختار أرجوك افهمني. نحن نبحث عن الفكر الذي يرتقي بنا ويسمو، لا عن الفكر الذي حارب العلم والمعرفة، وأشاع الأمية في وطني يا مختار كفاك ظلاماً. نريد أن نرى النور.

. لكن / ماركس وأنجلز / مخربان للعقول وللأمة العربية والإسلام .. إنهما لا يؤمنان بالقومية العربية التي نعمل ونضحي من أجلها .. إنهما لا يؤمنان بالغيب كما نؤمن به، ويحثّنا عليه ديننا الحنيف، فاتّقِ الله يا أبا ياسين، وارتجِ عفوه.

. يا أبا عدنان، إن كنت لا تؤمن بأفكارهما، فلم تصادر حريّة الآخرين؟.

. قاتلهما الله والله إني لا أحب ذكرهما أبداً.

يا أبا عدنان، أنسيت فضل الاشتراكيين في روسيا علينا، ألم يكشفو لنا أسرار اتفاقية سايكس بيكو، وخداع بريطانيا وفرنسا للشريف حسين ؟ !

. صحيح ما تقول. لكنهم كانوا يبغون من وراء ذلك مصالحهم.

. ما مصالحهم عندنا؟.

. ستكشف لك الأيام هذه المصالح يا أبا ياسين.

كان علي بك يتدخل كلما وصل النقاش إلى الذروة، رغم رضاه على كلّ محاورة فكرية تدور بين أعضاء الخلية، لأنها توسع آفاق العضو، وتسمو بمداركه. قال في نهاية المحاورة:

. كلاهما على صواب .. الفكر الاشتراكي خير من الفكر الرجعي الذي يشدنا إلى الجهالة والفقر والحرمان، وليته كان يشدنا نحو الإيجابية.

الفكر الاشتراكي ينشد العدالة للجميع، وهو إنساني غير متقوقع، وأنا مع الفكر الاشتراكي وفق ما يناسب واقعنا وخصوصيتنا العربية والإسلامية، فالغيب الذي لا يؤمن به الفكر الاشتراكي نحن نؤمن به لأننا مسلمون.

الفكر الاشتراكي يؤمن بان كلّ شيء للدولة وهذا ظلم وعدوان. الفكر الاشتراكي ضد الرأسمالية والإقطاع ونحن نؤيده وفق معايير خاصة تتعلق بحقّ الملكية واستثمار رؤوس الأموال، وهكذا فلكل فكر سلبياته وإيجابياته. نحن العرب المسلمين يجب ألا نهاجم الفكر من أية جهة كان مصدره إذا كان لنا فيه خير وصلاح وخلاص.

كان علي بك مثقفاً، واسع الإطّلاع، لبقاً في الحديث والمحاورة، يحبه الجميع، ويجلّونه لأنه طيب القلب نقي السريرة، وطني مخلص وغيور، لذا كان الجميع يستمعون إليه، ويرددون أقواله ويعدّونها مأثورة، وغالباً ما ينهي جلسات النقاش والحوار والجدال بقبلات على اللحى والشوارب، وبوليمة خاصة.

لم يُخفِ علي بك قلقه حول تسارع الأحداث في المنطقة العربية بشكل عام ولواء الفرات بشكل خاص، لذلك كان حريصاً على تكثيف اللقاءات بشرائح المجتمع كافة في مضافته العامرة، وزيارة المضافات الأخرى التي انتشرت في المدينة، إذ كان لكل مضافة طابع سياسي واقتصادي واجتماعي، وكان يحث الجميع على الوحدة الوطنية والتلاحم لأن الوطن للجميع ومسؤولية الجميع أمام الامتحان الصعب الذي يمرّ به حاضراً ومستقبلاً. قال له أبو أحمد الصبّاغ:

. هل تتصور دخول الإنجليز إلى دير الزور ؟

قال علي بك وهو يخطو عدّة خطوات مفكّراً:

. الاحتمال قائم، لكن ليس الآن لأن الحكومة الشريفية ستدخل مؤقتاً، وقد يأتي الشريف علي ناصر إلينا.

. وحكومة الحاج فاضل ؟

ضحك علي بك طويلاً، وقال:

. كفانا استمتاعاً بها، إنَّها والله حكومة فريدة في العالم، تحتاج إلى سهرة كاملة، ليس وقتها الآن .

قال أبو طارق:

. ليتها تظلّ يا أبا راغب، و والله إنَّها أفضل من أية حكومة في سورية. يكفي أنها لا تعتقل أحداً، ولا تكمّ الأفواه، أو تصم الآذان، والخير على يديها وفير والحمد لله.

. يا أبا طارق، أنا لا أنتقص من قدر الحاج فاضل، فهو وطني غيور، لكنه ليس حازماً وقادراً على الفعل السياسي الذي نحن بحاجة إليه الآن.

قال أبو سلطان الجابي:

. أنا مع أبي طارق، فوالله لقد ضاعف مرتباتنا وأعطانا علاوات ولباساً ومؤونة، ولا عيب فيه سوى أنّه قرّب الأقارب، وباعد الأباعد.

ضحك علي بك قائلاً:

. قلت لكم سنخصّص سهرة كاملة حول حكومتنا الرشيدة، أما الآن فدعونا نستفسر عن أحوالكم.

نظر علي بك إلى وجه أبي أحمد الصبّاغ فرآه مشرقاً، قال له:

. ما مدى رضاك على أحمد ؟

. الله يرضى عليه، وعلى المختار الذي أكرمنا بجوهرة ثمينة.

قال المختار على عجل:

. أحمد يستحق الحب والتقدير، والله لقد زادت محبّتي له عندما رأيته كيف يضحي بنفسه من أجل الوطن قال أبو أحمد:

. ما يفعله أحمد هو واجب عليه، وهو يسمّي علي بك ( المنقذ ) منذ أن تزوج سعدى ونَعِمَ بالراحة والاستقرار، والآن هو مجنون بالتوءم اللذين منّ الله بهما عليه.

قال علي بك:

. أتوسّم في أحمد كلّ الخير، ولقد أثبت جدارة بالعمل السياسي والعسكري، وأعوّل عليه خيراً.

. ويبقى فضلك عليه كبيراً، إذ لولاك لجُنّ والله.

. لا تقل هذا ثانيةً يا أبا أحمد. أحمد ولدي، وسأزوره لأرى التوءم. الله كريم يا أخي. ضيّع ولداً، فأعطاه الله ولدين. ماذا أسماهما ؟

. الحسن، والحسين.

. ما شاء الله ... ما شاء الله .. اللهم اجعلهما مباركين.

قال أبو عدنان المختار:

. لكن يا علي بك، كلّما احتضنتهما يعمدان إلى نتف لحيتي، فماذا أفعل؟

ضحك علي بك، وقال:

. ما عليك إلاّ أن تحلق اللحية لتأمن شرّهما. ضحك الجميع طويلاً، ثم قال أبو سلطان:

. لماذا لا نسمّيك يا علي بك ( أبا الخير )، فو الله كل الخير أتانا على يديك.

اقترب علي بك من أبي سلطان، وقال:

. يا أبا سلطان، أنت ورفاقك وجوه الخير، والله لولاكم لاسودّت الدنيا بعيني .. فعل الخير هو منهاج عملنا، أتمنى من الله يا ابا سلطان أن يستمر العطاء، حتى نرى بلادنا حرّة كريمة.

قال أبو ياسين :

. يا أبا راغب، قالت لي أم ياسين وأمها نرجو أن تذكّر علي بك بوعده.

. أي وعد يا أبا ياسين؟

ليأخذا دورهما استعداداً للآتي.

ابتسم علي بك، ونظر في عيني أبي ياسين، وقال: قل لهما: أنا على الوعد إن شاء الله.

دخل المضافة رجال علي بك وهم يحملون أطباق الثريد، فزغردت البطون، ومُدت الأيادي، وأخذت الأفواه تلوك طيب الطعام بنشوة.

قال علي بك والرفاق يشربون الشاي:

. غداً وليمة أخرى على شرف حكومتنا الرشيدة، لكن كل ما أرجوه ألاّ تصدقوا كل ما قيل عنها في الشارع...بعض الناس اختلقوا قصصاً وأفعالاً

نسبوها إليها، والحاج فاضل والله بريء منها وبعضهم قال على لسانه كلاماً لم يقلْه. سامح الله الآخرين.

ابتسم الجميع، وقاموا مودّعين علي بك، والأحلام ترفرف في سماء أمانيهم.

# (13)

عاشت دير الزور في ظل حكومة ( الفلت ) أشهراً حلوة برغم كلّ سلبياتها، وقد توهم الكثيرون أن دير الزور أصبحت دولة مستقلّة، واعتقد آخرون أنها تتمتع بحكم ذاتي لا يطبّق عليها ما يطبق على الولايات السورية، حتى إن حاكم المدينة الديري لا يعرف تماماً مع أي فئة يقف مدافعاً، لكنه استأثر بالتعيين والتسريح ومنح الألقاب والرتب أسوة بالولاة الأتراك ... روى المختار حكاية جرت أحداثها أمام عينيه:

( جاء أحد أقرباء الحاكم إليه، وطلب منه أن يمنحه رتبة عسكرية، فقال له الحاكم: ضع على كل كتف نجمة وانصرف، لكن القريب أبى. فقال له الحاكم اجعلها نجمتين، فأبى. فقال له اجعلها ثلاثاً ويا أهلاً وسهلاً، فأبى. وقف حينذاك الحاكم منتفضاً، واقترب من قريبه قائلاً: لم يبق لي إلاّ أن أعطيك مكاني هذا، وأنصرف أنا. فقال له: ومن قال لك أنني أريد مكانك ؟ أنا لا أريد سوى أن أعلّق على كلّ كتف نسراً. فوافق الحاكم على مضض، وكتب في ذلك كتاباً، فانصرف القريب مسروراً ).

ضحك كلّ من كان في المضافة، وروى كلّ واحد منهم حكاية سمعها من الآخرين، معظمها ملفّق، لكنها مضحكة. أمضوا سهرة طويلة عليها، حتى وهم يتناولون العشاء لم يسلم الحاكم أبداً من نوادرهم عليه، وعلى أعضاء حكومته. قبل أن يغادروا المضافة استوقفهم علي بك، واقترب من أبي ياسين، وسأله مستفهماً:

. لم تقل لي يا أبا ياسين، هل أخذ منك الضباط الأتراك كلّ الأسلحة التي بحوزتك ؟

أجاب أبو ياسين ضاحكاً:

. لا تخف علي. لقد أخفيت الصالح منها في صندوق ملابس زوجتي، وعندما رأوا ما لدي، هزّوا رؤوسهم وانصرفوا.

. بطل يا أبا ياسين .. بطل والله .

قال أبو أحمد الصبّاغ متسائلاً:

. إلى متى سنظل على هذا الوضع يا أبا راغب ؟

. اطمئن يا أبا أحمد .. سيصل الشريف علي ناصر ومعه المتصرّف الجديد بعد غد في الرابع من كانون الأول 1918.

ومن المتصرّف الجديد ؟

. مرعي باشا الملاّح.

. لكننا لم نسمع به أبداً.

. مرعي باشا رجل وطني، وله تاريخ حافل بالنضال، وأرجو أن تتعاونوا معه، وتطمئنّوا له.

قال أبو ياسين محتدّاً:

أنا لا أطمئن للباشوات أبداً يا أبا راغب.

. لكن مرعي باشا غير ما تظن يا أبا ياسين، ها هو رمضان باشا حاكم الرقة، وهو وطني غيور من أبناء الدير.

سكت أبو ياسين، فقال أحمد الصباغ:

. الرجل بأفعاله، والميدان أمامه، وهو وحده القادر على أن يكسب رضا الجماهير واحترامهم، فالفرنسيون دخلوا سورية، والإنجليز استوطنوا العراق، وهم الآن في / عانة /، وعانة جزء من لواء الفرات.

. أنت على صواب يا أحمد. الإنجليز ينظرون إلى دير الزور على أنها امتداد للعراق، والفرنسيون راضون بالتخلّي عنها مقابل ضّم الموصل إليهم، وهذا هو سرّ عدم احتلالها من قبِلهما حتى هذه اللحظة.

قال المختار منتفضاً:

. أفهم من حديثك أنهم يعدّون دير الزور عراقية والموصل سورية؟

. أجل يا أبا عدنان، هكذا اقتضت مصالحهم. أتذكر أنني قُلت في جلسة سابقة سيتقاسمنا الأوربيون وفق مصالحهم لا وفق طموحاتنا.

. أجل، وهذا ما قلته لأبي ياسين الاشتراكي. صاح أبو ياسين قائلاً:

. لن يتم لهم ذلك ياأبا عدنان، أعدك بذلك. ساد جو المضافة هرج غريب، وهمهمات عالية حسمها علي بك بقوله:

. يا إخوتي، الأيام القادمة ستكشف لنا المزيد، فلا تتعجّلوا بالحكم، وابقوا على أهبة الاستعداد مع رفاقكم في الخلايا الثورية، وأنت يا أبا ياسين جهّز لنا قدر استطاعتك كميات كبيرة من المتفجرّات والذخائر، وستصلك الإمدادات إلى بيتك.

. كما تريد يا أبا علي بك، ولو أنني استطعت بكل ما أملك أن أجهّز عشرة صناديق ذخائر ومتفجرات للمقاومة الشعبية .

ذهل علي بك، واقترب من أبي ياسين وعانقه قائلاً:

. غداً سيصلك المال اللازم بإذن الله، فلا تتوقّف أبداً.

مرت الأيام ثقيلة عاصفة، لم يهدأ خلالها أبناء اللواء أمام مجرياتها السيئة التي غمرت الجهات والجبهات كافة .. ففي فلسطين العربية كان الصهاينة يتسلّلون جهاراً بحمايةٍ بريطانية إليها، ويبنون المستوطنات، ويصادرون الأراضي الخصبة، ويطردون أهلها، ويفتكون برجالها، ويعيثون فساداً في الأرض المقدّسة تنفيذاً لوعد بلفور المشؤوم، وما تبقى من الوطن العربي الكبير قسّمته اتفاقية (سايكس بيكو) بين فرنسا وإنكلترا وإسبانيا وإيطاليا، فلم يعد الوطن العربي وطناً عربياً. قال علي بك مناشداً أعضاء الخلية الثورية:

. يا إخوتي دقّت ساعة العمل الثوري، لا تتوقفوا عن نشاطاتكم، وأناشدكم جميعاً أن تضاعفوا جهودكم.. وحّدوا الصفوف، وانبذوا الخلافات جانباً، وشّدوا الأحزمة على البطون، فالأيام السوداء قادمة، والإنكليز سيدخلون اللواء في الحادي عشر من كانون الثاني لهذا العام 1919.

قال أبو ياسين:

. بعد ثلاثة أيام ؟!

. نعم، بعد ثلاثة أيام ستدخل، ومعها صك تبعية دير الزور إلى الإنتداب البريطاني بصفتها تابعة للعراق، وعلمت أن الميجر / كارفر / سيتولى زمام الأمور عندنا.

صاح أحمد الصباغ:

. والله لن نجعل كارفر ينام إلاّ على فراش من قتاد.

خطا علي بك عدة خطوات، واقترب من أبي ياسين، وقال:

. يا أبا ياسين، ستتولى تعبئة المقاومة الشعبية في الأحياء، وسيكون الشيخ سعيد هو المرجع الأول والأخير لك .. وأنت ياأحمد ستتولى عملية التحريض في

القرى القريبة، وأنت يا أبا عدنان ستذهب إلى الميادين، وتتصل بأعضاء الخلية هناك وتنسّق معهم، وتكون صلة الوصل بيننا وبينهم، وأنت يا أبا صادق ستذهب إلى البوكمال للغرض نفسه، وأنت يا أبا أحمد أريدك أن تتولّى مهمة الاستطلاع، وأنت يا أبا طارق أريدك للإمداد والتعيينات، وليعنا الله.

قال أبو سلطان عندما صمت علي بك:

. وأنا يا علي بك ؟!

تأمّله علي بك طويلاً، ثم قال له:

. كيف أصبحت صحّة سلطان ؟إن شاء الله بخير؟

. الوطن أغلى من سلطان وأخواته، علي بك.

. صدقتَ يا أخي .. لكنني أريدك أن تبقى إلى جانب ابنك الوحيد حتى يبلّ من مرضه.

. لن أرضى والله أن أكون في البيت، وإخوتي يبذلون دماءهم رخيصة من أجل الوطن .. أرجوك يا علي بك أن تكلّفني بمهمة، أفضل من أن أختار طريقاً آخر.

. لا يا أبا سلطان، لن ندعك تهيم على وجهك، وطالما هي رغبتك فلتبق معي في العمليات، وقد أرسلك إلى جهة ما إن اقتضت الحاجة. هل أنت راضٍ الآن ؟

. نعم .. وألف شكر لك.

كان الغليان الشعبي على أشدّة. استطاع أحمد تحريض السكان . مدينة وريفاً. على الثورة، وكان شاعر الفرات يلهب المشاعر والأحاسيس بقصائده التي كتبها بخط يده مئات النسخ، حتى أصبح كلّ قارئ يرددها أو يكتبها ويوزّعها، ومنها :

**انهض وروِّ العوالي من عداك دماً**
**واستنهض السيف والقرطاسَ والقلما**
**شُلت يميني، وبانت إثرها عُنُقي**
**إن كنتُ يوماً بغير السيف مُعتصِما**
**يروم منّا استلام الدّير عن عَرَضٍ**
**أهلاً بمن للمواضي جاء مستلما**

وثارت دير الزور، وامتدّ لهيبها إلى البوعمْر وخشام والخابور والميادين والقورية والمصلخة والبوكمال .. ثورات متلاحقة أقضّت مضاجع الإنكليز، وكانت الخلايا الثورية تعمل ليل نهار وقوافل الشهداء متتالية، وبطولاتهم نادرة، ارتجف لهولها الإنكليز طويلاً.

قال علي بك بعد أن حمد الله وشكره:

. ليتحدّث أوّلاً أبو ياسين.

. المقاومة الشعبية يا سيّدي أدّت واجبها، ولم تقّصر إطلاقاً، وقد سقط لنا شهيدان، وارينا جثمانيهما البارحة، أما الجرحى فقد تمّ علاجهم ميدانياً، والحمد لله التحقوا بالمقاومة، ونحن ما زلنا على أهبة الاستعداد للتصّدي. أما خسائر العدو فقد تم تدمير مستودعات البنزين والكاز، وإحراق ثلاث سيارات نقل، وإعطاب سيارة جيب صغيرة، وأعتقد جازماً أن سائقها والضابط الذي كان يجلس إلى جانبه قَدْ قُتلا.

. عظيم يا أبا ياسين .. عظيم .. وأنت يا أبا صادق.

. يا سيدّي، عند دخول الإنكليز بلدة البوكمال، تكبّد العدو خسائر جسيمة، واستشهد عبد الدندل أحد رموز الثورة وشقيقه مشرف، ما لبث الإنكليز أن وقعوا في فخّ نصبه الثوار لهم في مكان يدعى / المجرود/، إذ تمكّن العقيدات من قتل أكثر من ثلاثين جندياً إنكليزياً.

. من كان يقود الثوار في المجرود يا أبا صادق؟

. أسود ومليشان وعبيد الفارس.

. بارك الله فيهم .. ابطال.

. ثم جرت المعركة الكبرى في المصلخّة بقيادة فارس وأخيه كسّار .لقد قتل الثوار أكثر من مائة جندي إنكليزي، واستشهد منهم سبعة عشر فقط. وتصور يا سيدي من كثرة القتلى أخذت النسور تنهش أشلاءهم، فأسمينا المعركة باسم معركة النسورية.

. عظيم .. عظيم .. وأنت يا أبا عدنان، ماذا جرى في الميادين ؟

. إن قلت لك كان أبناء الميادين والعشارة والقورية نسوراً فصدّقني .. لم يستطيع الإنكليز عبور الميادين إلاّ بصعوبة بالغة، فقد قام الثوار بقتل كلّ إنكليزي رأوه، وأحرقوا عدداً من آليات العدو، وسقط مقابل ذلك عددٌ لا يستهان به من الشهداء.

. شهداؤنا في الجنة، وقتْلاهم في النار يا أبا عدنان .. إخوتي أريد الآن بعد هذه النتائج المشرّفة أن أفضي إليكم بسرّ ستفرحون له كثيراً ..

. قال أبو ياسين ضاحكاً:

. إذن لست وحدي أبا الأسرار ؟!

. لكن هذا السرّ لا أحد منكم يعرفه. خلاصة القول إن رمضان با شا حاكم الرقة هو ديري من ريف المحافظة القريب كما تعلمون، وهو وطني غيور، آلمه ما أصاب دير الزور من مآس ومحن، فاستجاب لطلبنا بعد أن مهدنا لدخوله بغية تحريرنا من الإنكليز وعودة دير الزور إلى سورية.

قال أبو ياسين:

. ويلٌ للإنكليز منه، ووالله لن تقوم لهم قائمة عندما يأتي.

قال أبو عدنان: ماذا وضعتم له من ترتيبات لاستقباله ؟

قال علي بك:

. لا داعي لأن أشرح لكم الآن كل شيء، ولكن اطمئنوا.

قال أبو صادق:

. أعتقد أن الإنكليز سيقومون بعمل مضاد إذا ما تحرّكنا.

. لا تخف يا أبا صادق. لقد حسبنا لكل أمر حسابه.

قال أبو أحمد الصبّاغ:

. دعني ياأبا راغب أنا وولدي أحمد نراقب طريق دير الزور . الرقة، وارجوا أن تكلف أبا سلطان ومجموعة من الثوار بمراقبة شاطئ النهر عند (البغيلية)، أما أبو ياسين ومجموعة الثوار فاجعلهم يكمنون عند (الدخولية) على أبواب المدينة، وباقي أعضاء الخلية اجعلهم يراقبون مقري الحاكم العسكري والاستخبارات الإنكليزية.

ضحك علي بك طويلاً وهو يمعن النظر في عيني أبي أحمد ويراقب حركات يديه عندما يتحدّث، فقال:

. لم أدرِ يا أبا أحمد أنّك مخطط بارع ؟ من أين جئت بأفكاري هذه؟ هل حضرت اجتماع قيادة الخلية ؟ أم أن أحداً وشى لك بما جرى وما تحدّثتُ به؟ فالكلام الذي قلته هو ذاته ما طرحتُه في القيادة ووافقوا عليه.

. يا أبا راغب، الحاجة أم الاختراع، ومن ثم فإني أخاف كثيراً على رمضان باشا من غدر الإنكليز.

. لا تخف يا أبا أحمد. قلت لك لقد حسبنا لكل أمر حسابه.

نهض المختار بعصبية، وقال:

. دعوا الميجر كارفر لي. أنا من سيلقّنه الدرس الذي لا يُنسى. هدّأ علي بك من عصبية المختار قائلاً:

. الميجر كارفر لن تصل إليه. إنه محاط بسياج منيع من الجند والقنّاصة. دعه لرمضان باشا، فهو أولى بتأديبه منّا.

. صاح أبو سلطان بقوّة:

. لا يفلّ الحديد إلاّ الحديد .. صدقت يا أبا راغب .. صدقت.

# (14)

كان يوم الحادي عشر من كانون الأول عام 1919يوماً تاريخياً في دير الزور، عندما تنفّس الصبح، وتكشّف الجو عن فارسٍ فراتي يمتشق سيف الحق متحدّياً قوى الباطل .. فارس عرف الأتراك صولاته وجولاته، وكرَّه وفرَّه .. عرفوا فيه الشجاعة والإقدام، كما عرف فيه أهلوه المروءة والنخوة والشهامة.. رجل آلى على نفسه ألا يكون بعيداً عن الأحداث التي تعصف بإخوانه ووطنه

قال لقواته التي تحاصر الثكنة العسكرية الانكليزية، والتي أمطرتهم بوابل من الرصاص.

. اليوم يوم الملحمة.. اليوم سيكون له ذكرى وتاريخ، ولن نقبل يا إخوتي بغير استسلام الإنكليز ورحيلهم عن بلدي ..

وكانت الجموع الغفيرة التي أحاطت به تلهب الأفئدة وهي تصيح بأعلى صوت:

. الله أكبر .. الله أكبر ..

رفع الحاكم العسكري الإنكليزي راية الاستسلام عندما أحكم الثوار حصارهم عليه وعلى حاميته، وألقى السلاح هو وجنده عندما رأى بالمنظار أن سكان المدينة والريف قَدْ زحفوا إليه بالعصى والمعاول .. أدّى التحية العسكرية لرمضان باشا، وتسلّم الثائرون أسلحة الحامية وذخائرها.

صاح رمضان باشا بأتباعه:

. اجمعوهم في مكان واحد، وامنعوا عنهم الأذى، لأنهم أسرى حرب، وعلينا أن نحسن معاملتهم. قال أبو ياسين، والفرحة قَدْ غمرته:

. لماذا لا نرحّلهم إلى العراق، أو نسلّمهم إلى الملك فيصل لينظر بأمرهم؟

. لا يا أبا ياسين. إن طائرات الإنكليز تحوّم الآن فوقنا، إنَّها تودّ قصف المدينة بالقنابل .. اجعلوهم في العراء مكشوفين دروعاً بشرية، واختبئوا جميعاً في الملاجئ ريثما تنقشع الغمّة.

قال أبو أحمد:

. لكنهّم لن يتركونا بخير.

. يا أبا أحمد، سيتركوننا بخير طالما أن الحامية الإنكليزية في قبضتنا. إن مناشيرهم الملقاة علينا تحذّرنا من قتلهم.

. إذن ما العمل الآن ؟!

طلب رمضان باشا من أحمد الصبّاغ أن يكتب جواباً للإنكليز:

. اكتب يا أحمد :

(من رمضان باشا حاكم الرقة ودير الزور إلى قائد القوات الإنكليزية في العراق: السلام على من اتّبع الهدى، وبعد: لو أردنا إبادة الحامية الإنكليزية لفعلنا منذ دخولنا، لكننا نأبى الظلم، كما نأبى الاحتلال. إن لم ترحل طائراتكم عن سماء دير الزور ويرحل معها كلّ جنودكم بأسرع ما يمكن، فلن تجدوا خيراً. نحن نذرنا أنفسنا للشهادة في سبيل الله، وفي سبيل تحرير الوطن الغالي، وقد أعذر من أنذر).

كان الشعب هائجاً، تارة يمزّق العلم الإنكليزي ويحرقه، وتارة أخرى يهاجم بيوت الضباط الإنكليز، ولولا أن هبّ عدد من رجالات المدينة لحماية الأطفال والنساء الإنكليز لمزّقهم الشعب أشلاء، ورماهم للكلاب. جاء الردّ بعد عدّة أيام:

(إلى رمضان باشا. سنرحل عن دير الزور فوراً ونحن بانتظار تسليمنا الحامية كاملة في مدينة البوكمال )

قائد القوات الإنكليزية في العراق. قرأ رمضان باشا الرد بعصبية، وطلب من أحمد الصباغ أن يكتب لهم:

( البوكمال بلدة سورية، فليكن التسليم على الحدود مع العراق في بلدة /القائم/)

وفي الخامس والعشرين من كانون الأول 1919 أُطلق سراح الإنكليز، وانقشعت غمامة سوداء كادت تعصف بالمدينة والريف، وتجعل الدماء تجري سيولاً.

رحل الإنكليز بلا رجعة بعد أن مكثوا في اللواء أحد عشر شهراً لم يجنوا منها سوى الخيبات.

كان علي بك والمناضلون في الخلايا الثورية يعقدون الاجتماع تلو الاجتماع للبحث في آخر المستجدات، وفي آخر اجتماع في منتصف كانون الثاني عام /1920/ وقف علي بك محدّثاً المناضلين في مضافته:

. يا إخوتي، قررت الحكومة الفيصلية إرسال السيد مولود متصرّفاً لدير الزور.

قال أبو ياسين محتدّاً:

. ورمضان باشا؟!

. سيرحل إلى الأردن.

. لماذا؟.

. إنها أوامر عليا لابد من تنفيذها. صاح أحمد الصباغ غاضباً:

. إنَّها مؤامرة حاكها الملك فيصل مع الفرنسيين تمهيداً لدخولهم إلى دير الزور. عليه ألا يرحل، وسنقف معه بكل ما نملك من قوة.. قال المختار مؤيّداً صهره أحمد الصبّاغ:

. يا علي بك، ما يقوله أحمد صحيح وعلينا أن نعي أبعاد هذه المؤامرة، ويجب أن نعي أيضاً أننا لسنا أحجار شطرنج.

قال علي بك متأثّراً:

. يا إخوتي .. أعرف ما لا تعرفونه .. أعرف أن السيد مولود هو عدو تقليدي لرمضان باشا، وأنهما لن يجتمعا معاً، لذا لابد له من الرحيل، وعلينا أن نودع رمضان باشا وداعاً حاراً، وألاّ نعقّد الأمور، وسنرتّب أمورنا بعد ذلك جيّداً.

صمت الجميع وكأن على رؤوسهم الطير، لأنهم يعرفون أن أبا راغب يعرف خفايا الأمور، وعليهم أن يطيعوه، ويمتثلوا لأمره قبل فوات الأوان، لذا اكتفوا بالنظرات التي ألقوها في وجهه، والذي بحكم فطنته وذكائه قَدْ أدرك سرّها، فابتسم في وجوههم قائلاً:

. والآن أخبروني عن أحوال ذوي الشهداء.

قال المختار:

. لقد شكلّنا لجنة مؤلفة مني ومن أحمد وأبي ياسين، وذهبنا، إلى بيوتهم كما أمرت، وأعطيناهم المساعدات المقررة فرفضوها رغم فقرهم، لكننا أرغمناهم على قبولها.

. ماذا كان يعمل الشهيد الأول؟

. كان عاملاً في إصلاح الطرق / النافعة/.

. أبلغوا أهله لإرسال أحد أفراد أسرته ليحل محلّه.

وماذا كان يعمل الشهيد الثاني؟

. كان يعمل على عربة يبيع فيها الخضار والفواكه.

. خصصوا لأسرته راتباً شهرياً يكفيهم ذل السؤال. والشهيد الثالث؟

. كان موظفاً في دائرة البريد.

. عيّنوا ابنه مكانه، وأعطوا أسرته الراتب الذي كان يتقاضاه قبل استشهاده. أما الجرحى فأرجو أن تسهروا على راحتهم وتلبية مطالب أُسَرِهم ..

. نحن فعلنا ذلك، ولن نقصّر إن شاء الله.

. هو الواجب يا إخوتي، والأيام القادمة حبلى بالمفاجآت، وعلينا أن نستعد لها بكل عزيمة وإصرار.

نهر الفرات لم يهدأ، تتماوج تياراته بصخب، فتلقي في الأذان موسيقا جنائزية، وعلى الوجوه ظلالاً من الشك...

كان الرجال يسيرون بتؤدة، وألف سؤال يدور في رؤوسهم المثقلّة بالهموم والأحزان، ولعل أبرز سؤال يطرحونه في مجالسهم:إلى أين سنمضي؟ وإلى متى؟ ودّع الرجال قائدهم الكبير، ومحرر لواء دير الزور من الإنكليز بهتافات ناشجة، وكان يرّد عليهم بعبارات ملؤها الثقة بالنصر، ويطلب منهم مواصلة التضحية والفداء ، والتنبّه لكل ما يُحاك ضدّهم.

سرت شائعات خلقت جوّاً من الفوضى والبلبلة في صفوف الشعب، ولم يسلم منها المناضلون مفادها أن الإنكليز يتأهّبون للعودة إلى دير الزور، وقد أكّدت طلائع الاستطلاع في البوكمال صحة هذه الشائعات، فتهيّأ الثوار لعملية التصّدي والردع.

قال علي بك:

. أطلبُ من أبي أحمد وولده أحمد أن يقودا سرية من المناضلين لدعم الخلية الثورية في البوكمال وقوات المقاومة الشعبية، وسنوافيهما بالدعم اللازم كلما احتاجوا إليه، على أن يوافونا بالأخبار يوماً بيوم.

قال أبو أحمد، وقد وقف رافعاً يده:

. منذ الغد إن شاء الله .

. لا يا أبا احمد. منذ الآن.

. كما تريد.

لم تكن مهمة أبي أحمد وولده سهلة على الإطلاق، كان عليه أن ينتقل بين القرى لتحريض أهلها ضد الإنكليز، كما كان على ولده مهمة توزيع المهام والأماكن وتوجيه الثائرين إلى أهداف مرسومة.

وعندما دخل جيش الإنكليز البوكمال جوبه بمقاومة لم يكن يتوقّعها أبداً. كانت معركة طاحنة، قُتل من الإنكليز أكثر من ستين ما بين جنديّ وضابط، واستشهد من الثوار ثلاثة: أبو أحمد الصباغ واثنان من البوكمال. تراجع أحمد وسريته إلى الميادين فأطبق ومن معه من ثوار الميادين على فلول الإنكليز، وطاردوهم حتى قرية المصلّخة حيث كانت مقبرتهم هناك، وقسم كبير من جثثهم ألقي في نهر الفرات، فانتهت بذلك أحلام الإنكليز بالعودة إلى دير الزور، وتحدّث الناس طويلاً عن بطولات خارقة فردية وجماعية.

قال علي بك وقد أمسك بيد أحمد الصباغ:

إني فخور بك يا أحمد، ورحمة الله على أبيك، واعلم يا ولدي إن أردت فسأنقل لك جثمان أبيك من البوكمال إلى دير الزور.

قال أحمد:

. والدي . رحمه الله . بذل روحه رخيصة، واستطاع أن يقتل أكثر من خمسة عشر إنكليزياً، ولولا نفاد ذخيرته لقتل المزيد، وإني راضٍ ببقاء جثمانه في أرض البوكمال الطاهرة التي بذل أبناؤها النفسَ والنفيس من أجل طرد الإنكليز. لكن . يا سيّدي . حدث أمر غريب لم أجد له تفسيراً.

. ما هو؟

. شارك في معركة المصلّخة ثلاثةُ ملثّمين لم أتعرّف على شخصيّاتهم وكانوا غرباء عنا. جاؤوا على صهوات جِيادٍ عتاق، واستطاعوا أن يفتكوا بالإنكليز، ثمّ اختفوا بعد النصر، ولم أعثر عليهم، وكان الثوار يرددون صيحاتهم المدويّة، وقال عنهم مشايخ الريف بأنهم من جند الله أرسلهم لنصرتنا.

ابتسم علي بك، وكان هو الرجل الوحيد الذي يعرفهم.. إنهم عمال أبي صادق الميكانيكي: ديكران وآرتين وآغوب.. ثم قال

. أتعرفون يا إخوتي من زارني ليلة البارحة؟

قال أبو عدنان:

. سمعتُ أن ضيفاً غريباً جاءك ليلة البارحة، وكم كنت أودّ معرفته، لكنه رحل قبل أن أراه، فمَن هو يا تُرى؟ ولِمَ جاء؟

ابتسم علي بك ، وقال:

. إنه قائد مناضل من /حماة/، تعرف فرنسا سطوته وجبروته، وقد جاء إليّ ليخبرني أنه في العاشر من تشرين الأول هذا العام 1920، أي بعد أيام قليلة ستدخل دير الزور كباقي الألوية تحت الانتداب الفرنسي، وان فرنسا جهّزت حملة كبيرة لاحتلال دير الزور في مطلع العام القادم، وعرض علي المساعدة وتدريب الثائرين، ووضع الخطط الحربية الكفيلة بإنهاك القوات الفرنسية.

قال أبو ياسين بحماس:

. إنه والله رجل شهم، ونحن بحاجة ماسّة إليه.

قال علي بك:

. طبعاً شكرته على موقفه النبيل، وقلت له إننا سنحتاجه حتماً، لكن عند دخول القوات الفرنسية دير الزور، فقال: أنا سأقيم عند أصدقاء لي في بلدة العشارة، وقرية المصلّخة، وسأكون جاهزاً عند الطلب شريطة أن ترسل لي الملثّمين الثلاثة، ولا أريد غيرهم، فوافقته، ثم رحل.

قال المختار:

. خيراً فعلت يا علي بك. لكن من هم هؤلاء الملثّمون. أناشدك الله قل لي.

. لم يحن بعدُ التصريح بأسمائهم. هم أرادوا وألحّوا على ذلك. أتعرف يا أبا عدنان أن عدداً من النسوة أردن الانخراط في صفوف المقاومة الشعبية؟

قال المختار دهِشاً:

. نسوة يا علي بك؟! أمن قلّة الرجال؟!

. لا يا أبا عدنان، يجب أن يكون للنسوة نصيب في ا لنضال، وما المانع من اشتراكهنّ؟ لقد أيّدت زوجتي الفكرة وطلبت مني أن أبارك اشتراكهن فوافقت، لكن بحدود ضيّقة.

. وهل نستطيع أن نتعرّف عليهنّ؟

. يا أبا عدنان، لن يستطيع أحدٌ أن يفكّ خُمُرَهنّ، وتيمّناً بالملثمين طلبن أن أسمح لهنّ بوضع النقاب إلى جانب الحجاب والعباءة أثناء المعارك، وشرطت عليهنّ العمل ضمن أحياء المدينة ولساعات معدودات من النهار.

. خيرٌ إن شاء الله.

اقترب علي بك من أحمد الصباغ قائلاً:

. سنحضر الليلة عندك في البيت. لا يمكننا أن نستمر بالحزن، نريد أن نشهد على قران حميدة من ابن خالتها سامي، فما رأيك؟

دُهش أحمد، فالوقت غير مناسب، ومازال الحزن يلفّ البيت بمن فيه، والموضوع يحتاج إلى رويّة.

قطع علي بك على أحمد تفكيره قائلاً:

. سنحضر بعد صلاة العشاء، وسيرافقني أبو عدنان وأبو ياسين وأبو سلطان وأبو صادق وأبو طارق.

. أرجو أن تمهلَني يومين على الأقل لأتدبّر أمري.

. كلّ شيء جاهز يا أحمد. ستراه عندما تذهب إلى البيت.

. على بركة الله يا علي بك.

# (15)

في حفل زفاف حميدة لابن خالتها سامي جرى احتفال عائلي مختصر، حضره علي بك وأبو ياسين وأبو عدنان وأبو طارق وأبو سلطان وأبو صادق الميكانيكي، وارتأى أحمد إلغاء الأهازيج والرقص والغناء والزغاريد إكراماً لروح أبيه الشهيد، فوافقه علي بك بسبب الظروف الصعبة التي تمر بها المدينة أيضاً، لكن الفرحة التي غمرت حميدة وابن خالتها سامي كانت أكبر من الأحداث كلّها.

لم تصدّق حميدة أن سامياً أصبح زوجها بسنّة الله ورسوله، وما أن أنهى القاضي الشرعي مراسيم الزواج ومباركته حتى بدأت أطباق الحلوى الشهية تفوح منها رائحة السمن العربي تملأ الأنوف.

كان مهر حميدة صرّة من الذهب أودعها علي بك بين يدي حميدة قائلاً:

. والله يا بنتي لولا الظروف العصبية التي نمر بها جميعاً، لأقمت لك حفل زفاف يفوق حفل زفاف أخيك.

قالت حميدة بخجل:

. والله يا عمّاه ما أردتُ من الدنيا شيئاً سوى ابن خالتي.

أما سامي، فوقف قائلاً:

. عهداً مني أمامكم أن أضع حميدة في عينيّ وفي قلبي، كما أعدكم بأنني سأواظب على الدراسة في المكتب السلطاني لأكون جديراً بحمل رسالة العلم والمعرفة. قبل أن تنتهي حفلة القران بدقائق، جاء أحد أتباع علي بك مسرعاً، وطلب رؤية سيدة على عجل...

خرج علي بك من الغرفة، واتّجه نحو الباب الخارجي، وتسلم وريقةً من تابعه. قرأها فتجهم وجهه النحيل، لكنه حافظ على توازنه، وعاد إلى الغرفة.

لاحظ أبو ياسين تغيّر ملامح وجه علي بك، فاقترب منه، ولم يستطيع علي بك أن يخفي ما جاء به حارسه. قال بصوت متهدّج:

. القوات الفرنسية اتجهت من حلب إلى دير الزور بقيادة (دوبيوفر) والمطلوب منا عمل عاجل.

قال أبو ياسين:

. تمهّل يا أبا راغب. الصباح رباح. وسيرون منّا ما لم يروه طوال حياتهم.

. إذن سنجتمع مع أعضاء الخلية صباحاً في المكتب السلطاني.

كان الليل في الهزيع الأول، لكن الشتاء يطرق الأبواب بقوة، والريح تصفع النوافذ بقسوة، فتطفئ ذبالات المصابيح بهمجيّة.

قال علي بك، وهو يودّع العروسين:

. بالرّفاء والبنين إن شاء الله.

قال أبو ياسين لهما:

. أتمنى أن يكون عام زواجكما عام تحرير إن شاء الله. أما المختار فابتسم ابتسامة ماكرة قائلاً:

. أتمنى لكما شتاءً دافئاً، وحباً دائماً. وتصبحون على خير.

الفرات يعزف مع الريح سيمفونية الخلود، والأشجار بدت كفزّاعات تتمايل يمنة ويسرة، تُطلق حفيفاً يُنبئ بأن عاصفةً على وشك الوقوع.

قال علي بك متنهدّاً:

اللهم اجعل عامنَا هذا عام خير، واجعل كيد عدونّا في نحره.. اللهمّ انصرنا على أعدائنا، ولا تذلّ عِبادك يا أرحم الراحمين.. اللهمّ أنت أعلم بما في قلوبنا وهواجس ضمائرنا، وأننا لا نبغي إلاّ رضاك وعلوّ رايتك، فوفقنّا في كلّ خطوة نخطوها، وفي كلّ فعل يقوم به المناضلون.

كان رفاقه الذين يسيرون خلفه يرددون كلّ آونةٍ: آمين يا رب العالمين. وقبل أن يفترقوا قال أبو ياسين:

. متى تتوقّع وصولهم يا أبا راغب؟

. لا تنسَ يا أبا ياسين أن لديهم آليات وخيالة ، وقد يكونون في الرقّة غداً، فإذا ما استطاعوا إخضاعها توجّهوا إلى دير الزور خلال أيام قليلة.

قال أبو عدنان

. سأفكر بخطة تصفعهم، وربما تردهم على أعقابهم.

ضحك علي بك وقال

. غداً في الصباح الباكر سنرى خطتك يا مختار.

لم يستطيع علي بك النوم، كان يفكر بما سيفعله صباح الغد، وبما يجب فعله مع الثوار لمواجهة العدو المدجّج بالسلاح، بالشهداء الذين يضحون بدمائهم من أجل الحرية والكرامة.

أثقل التفكير رأسه الصغير، فقام وتوضّأ، وصلّى لله ركعتين فأطال سجوده ودعاءه، ثم تناول لقيمات، وارتدى لباسه، وسار محاذاة الشاطئ رغم البرد ورداءة الجو.

لفت نظره عدد من الطلبة يتحلّقون حول مدير المكتب السلطاني، يتناقشون في أمر ما، لم يستطيع أن يتبينّه إلا حال وصوله إليهم.

تقدّم الأستاذ عبد الله مدير المكتب السلطاني نحو علي بك حينما رآه، وعانقه، فتبسّم علي بك قائلاً:

. هؤلاء أوائل الطلبة أم من المشاغبين؟

إنهم يجمعون الصفتين.

. ماذا كانوا يريدون منك؟

. كعادتهم.. التظاهر احتجاجاً على نيّة فرنسا احتلال دير الزور، وهذا من حقّهم لكنني قلت لهم: لم تأت فرنسا كي نتظاهر، فأرجو أن تتمهّلوا، ووقتذاك سأشارككم أنا والهيئة التدريسية تظاهركم، فاقتنعوا وانصرفوا.

. يا عبد الله سيكون في تمام الساعة الثامنة صباحاً عدد لا بأس به من الخلية الثورية في ضيافتكم.

. على الرحب والسعة وسأذهب اللحظة لأهيئ لهم اللقاء.

. رافقتك السلامة.

سار علي بك على الشاطئ طويلاً، ثم توقف عندما سمع صوت حارسه يناديه مهرولاً. توقف حتى وصل إليه.

. ما بك يا سليم؟

. جئت لأخبرك بأنني بلغّت كلّ الأسماء التي أعطيتنيها، وهم الآن في طريقهم إلى المكتب السلطاني.

. بارك الله فيك يا ولدي. اذهب واحتل مكانك الذي أشرت به إليك، وأنا سألحق بك.

وقف الجميع عندما دخل علي بك إلى المكتب السلطاني، وهتفوا للوطن طويلاً، ثم جلسوا وتناقشوا في المستجدات كافة وفي الخطط الرامية لإفشاء أو إعاقة دخول القوات الفرنسية دير الزور.

قال علي بك:

. لنسمع ما أعدّ لنا المختار؟

تنحنح أبو عدنان، وقال:

. يجب أن نقسم أنفسنا إلى سبع سرايا، في كلّ سرية سبعة مناضلين:

. الأولى تكمن في (عين أبو جمعة) مع مجموعة الاستطلاع. الثانية في (عيّاش)، والثالثة في (البغيلية)، والرابعة في بساتين (الرويلي)، والخامسة في مغارة (ابن سعود)، والسادسة في (الدخولية)، والسابعة في الملعب مقابل المكتب السلطاني، إضافة إلى غرفة عمليات تعيّنون لها قادة مهرة وأفراد اتصال مع كلّ سرية. صحيح أننا قَدْ لا نستطيع أن نوقف زحف القوات الفرنسية، لكننا سنكبّدها خسائر فادحة قَدْ تعيق دخولها إلى المدينة إلى فترة تسمح للمناضلين إعادة انتشارهم ولملمة صفوفهم، وعلى كلّ واحدٍ منا أن يودّع أهله وأقرباءه وأصدقاءه لأنه قَدْ يهبه الله الشهادة

صفّق له علي بك، وكذلك فعل الآخرون، وقال:

. أنا أضيف إلى سرايا أبي عدنان سرية ثامنة مؤلفة من الهيئتين التدريسية والطلابية للتظاهر وتحريض الشعب.

قال أبو ياسين:

. أنا أقترح سرية تاسعة من النساء المتطوّعات. تمت الموافقة على المقترحات، وأوكلت إلى لجنة مؤلفة من خمسة مناضلين انتقاهم علي بك بموافقتهم، لوضع هذه المقترحات قيد التنفيذ بعد انتهاء اجتماعاتهم وتعيين لجنة إمداد وتموين برئاسة أبي ياسين، ولجنة تحريض وإعلام برئاسة الشاعر الفراتي.

انتظر المناضلون طويلاً، وقد استكملوا تدريباتهم القتالية، وعاينوا كلّ الأمكنة التي سيتواجدون فيها، وأقاموا تحصينات فيها، وأودعوها قسماً من الذخائر والمؤن والسلاح، وطال انتظارهم، حتى كاد صبرهم ينفد..

القوات الفرنسية اصطدمت بمقاومة منظمة في قضاء الرقة، وقد استطاعت شخصية بدوية من قبيلة /عنزة/ اسمها (حاجم بن مهيد) أن تبسط نفوذها وسلطانها عليها وأن تمنع الفرنسيين من دخولها من العاشر من آب 1921 ولغاية

السابع عشر من كانون الأول، ولم تفلح جهود فرنسا بالتفاوض مع حاكم الرقة إذ أغروه بمئة ألف ليرة عثمانية كدفعة أولى ، ولم يوافق، إذ بلغت سطوة الشيخ حاجم أن مدّ نفوذه إلى ريف حلب، وكاد يحتل حلب لولا استخدام فرنسا طائراتها التي شتتّت قواته وقضت على العديد من ثواره.

ولم ينس القادة الفرنسيون دير الزور، إذ ذهبت قوة كبيرة أرسلها القائد الفرنسي / ترانكيه/ إليها فوصلت في خريف 1921 لتصطدم بالمقاومة المنظمة التي أعدّتها الخلية الثورية في دير الزور أبادت سرايا المقاومة عدداً كبيراً من القوات الفرنسية والسنغالية، ودمّرت عدداً من آلياته، واستولت على قسم من ذخائرهم وأسلحتهم وتموينهم أما في الريف فكان الكولونيل /:ريتشارد / يقود حملة فرنسية لتأديب المتمردّين، وذهل ريتشارد عندما وجد الريف منيعاً قوياً برجاله وتحصيناته .. بخنادقه ومتاريسه، وطار صوابه عندما رأى أعمدة اللهب تتصاعد من المطار، إذ تبين له أن أربع عشرة طائرة قَدْ أحرقت مع خزان الوقود الرئيس، وجرت معركة حامية على تلة بين ( مراط وخشام ) في موقع السّن، ولم يعد يُسمع سوى صوت الحداة يرددون:

**يا فرنسي وين جدودك اتحارب من دون حدودك**
**ما شفتنا لمّا انحودك وانذبّح ضبّاط العسكر**
**من فوق السن احدرناهم تسعميّه ومعمو ويّاهم**
**حمودالحمادي جاهم جاب المطر لّوز ميسرّ**

وكان /معمو/ عميلاً لفرنسا، لم يسلم من غضبة الثوار...

كانت ثورة (العنابزة )، وثورة (البوخابور) تلهبان الوجدان، وتنثران الأمل في ساحات الانتظار وكان تل (الشروفية) حيث انتصب مدفع قديم غنمه الثوار قبل أشهر من الإنكليز وعدد كبير من المناضلين أمثال حمود وعيبان وعربيد كانوا بالمرصاد لكل تحرك فرنسي. استطاع الثوار أن يبيدوا أكثر من مئة وثمانين جندياً وضابطاً فرنسياً وسنغالياً وعلى رأسهم قائد الحملة ريتشارد، وغنموا من العدو مدفعين ومنظارين استخدمهما المناضل محمد الفلاح الذي كان رقيباً في سلاح المدفعية التركي، فأحسن استخدامهما، وهربت القوات الفرنسية من بطش الثوار إلى مدينة دير الزور، وصوت الحداة يلاحقهم:

**العمري ناموسه براسه حطوا الشروفيّة متراسه**
**الطوبجي انكحف راسه والرشّاش انجيبو ميسّر**
**الطيارات الحرقناهن غرب الجفرة خلّيناهنْ**
**ميكال المارد ويّاهن بالمطر لوز انجيبو ميسّر**

كانت الثورات متلاحقة لم تهدأ يوماً إلاّ بعد استشهاد قائد قوّات الريف / حمود الحمادي / الذي أسكت وحده سرية كاملة من قوات الفرنسيين، حتى إذا ما انتهت ذخيرته راح يصيح:

(اليعطيني مشط رصاص يأخذ بنتي فضة) ولم يهرب لأنه طلب شدّ وثاق ساقيه. قتله الفرنسيون، وقطعوا رأسه، وأخذوه إلى جهة مجهولة، ودفن بلا رأس... ولقد رثته امرأة عجوز فقالت:

**لا تهيّجون الظعن بيها العوادي وذبّح السودان حمود الحمادي**
**غنّي وهلهلي يامّ العيون السود يا فضة وصالحة حمود رافع البنود**

أما مدينة دير الزور، فلملمت جراحاتها، وشيّعت شهداءها بكل فخر وشموخ .. شيّعت:(ديكران، ميرنا أم سلطان، وأبا طارق )، وقد أقامت دير الزور حفل وداع لهم ألقى خلالهما علي بك والأب مردخيان والشاعر الفراتي كلمات وقصائد أججت المشاعر، ودفعت الثوار لمزيد من النضال ضدّ الفرنسيين، وانتشرت مجالس التهنئة باستشهادهم في كلّ حيّ وشارع وزقاق.

# (16)

السنون تمر ثقيلة مكفهرّة .. غيوم سوداء، وريح عاتية، بروق ورعود قصفت رؤوس الأشجار، ولوت أعناق المزروعات .. في كلّ بيت نواح وعويل، وفي كلّ حيّ مأتم..

فقر وعوز وحرمان لف المدينة فأرّقها، والعيون ذابلة تتطلع إلى الله بتذلّل وانكسار ..

كثرت المقاهي على شاطئ الفرع الصغير، والشيوخ يدفنون الوقت بأحاديث عرجاء، بعضهم يترحمون على العثمانيين، وآخرون يشتمون دون حياء فيصلاً والحسين وعلياً وزيداً وعبد الله، وسقاه المقاهي يهزون رؤوسهم أسفاً لأنهم لا يفهمون ما يقال، وما يجري، وما يدور.. لكنهم يعرفون من استُشهد، ومتى وكيف..

قال أحد الشيوخ للساقي الذي يهز رأسه باستمرار:

. من استشهد اليوم يا هزّاز؟

وضع الهزاز أمام الشيخ كأساً من الشاي، وجلس قبالته، وقال:

. تصور يا أبا محسن أن شهداء اليوم كنّا نحسبهم من الجبناء، وكنت أنا أسخر منهم عندما كانوا يأتون إلى المقهى، واليوم احتقرت نفسي، وأكبرتُ فيهم شجاعتهم.

. ومن هم؟

. ابن علوش، وابن عبوش، وابن كردوش. كانوا لا يفترقون إلا عند النوم، وجاءهم الموت ليجمعهم من جديد. يا قدرة الله!

. أين استشهدوا؟

نصبوا كميناً لدورية فرنسية عند المكتب السلطاني وأبادوها، ولسوء حظهم أن دورية أخرى كانت لا تبعد كثيراً عن سابقتها رأتهم، فأصلتهم ناراً حامية، وأردتهم قتلى.

. لا تقل قتلى، قل شهداء يا هزّاز.

. نعم .. شهداء والله، وشجعان والله.

قتلاهم في النار، وشهداؤنا في الجنة إن شاء الله.

قام الهزاز عندما جاء علي بك والشاعر الفراتي، وجلسا إلى جانب الشيخ أبي محسن، وقد سمعا ما قاله الهزاز.

قال علي بك للهزاز:

. اجلب لنا إبريقاً من الشاي بسرعة.

ذهب الهزاز يعدو مسرعاً، وأخذ الرجال الثلاثة يتحدّثون بصوت خفيض إذ شاهدوا بعض العملاء في المقهى يتنصّتون لكل ما يقال.

قال الشاعر الفراتي لعلي بك:

. لِمَ لا تكون في المدينة مقبرة خاصة للشهداء؟

. أنت تعرف يا أبا القاسم أن كلّ عائلة تدفن موتاها وشهداءها في مقبرتها الخاصة لكن توجد مقبرة بمحاذاة جبل الولي لم يُدفن بها سوى أربعة شهداء من عائلة واحدة، وأفكر أن أجعلها مقبرة للشهداء.

. إنه تفكير صائب والله، وسنزرع فيها عدداً كبيراً من الأشجار والزهور إن شاء الله، والآن أرجو أن تحدّثنا عمّا سمعته ولم نسمعه نحن.

. سمعت أن رمضان باشا أخفق بتشكيل قوة في الأردن من أبناء الفرات لتحرير دير الزور بسبب ضغط الأمير عبد الله عليه، كما سمعت أنه سيرحل إلى جبل العرب لينضمّ مقاتلاً في صفوف الثورة السورية الكبرى التي يقودها سلطان باشا الأطرش.

. هل نستطيع أن نقول إنه بإذن الله سيكون عام 1925 عام تحرير يا أبا راغب؟

ستزداد قوة سلطان باشا بانضمام رمضان باشا إليه، فرمضان باشا قائد عسكري ومخطط حربي بارع. قال الشاعر الفراتي: في حال انضمام رمضان باشا إلى سلطان باشا سألقي قصيدة أجعلها حديث المحافل.

قال أبو محسن:

. ونحن ألا نتحرك ونحرك الريف معنا يا أبا راغب؟

. لقد وضعنا خطة للتحرك يا أبا محسن، أما الريف فقد تعاقدت القبائل، وتعاهدت على طرد الفرنسيين مهما كلفهم ذلك من ثمن، وأسموا أنفسهم

(العقيدات) ولهم نخوة (أبرز) عندما يسمعها فرد منهم فمعنى ذلك أن يتهيأ للنضال ويده على الزناد.

. بارك الله فيهم، وسدّد خطاهم، وأتمنى أن نتعاقد نحن في المدينة مثلهم وأن ننبذ الخلافات بيننا، فمعيب جدّاً أن نظل / وسطيين وشرقيين وغربيين و.../

. نحن متعاقدون يا أخي. ألسنا جميعاً /أخوة بطة/؟

. لا يا أبا راغب، فمازالت بعض العشائر / أخوة الخرسا، وأخوة عدلة، وأخوة عمشة/، وما زال الثأر يحرق أولادنا.

. يا أبا محسن، نحن متعاقدون في النضال ضدّ فرنسا، وشهداء اليوم من ثلاث عشائر، وهذا دليل تعاقدنا.

. صحيح، لكن المساوئ مازالت.

. اتركها للزمن، فهو كفيل بدفنها.

قال الشاعر الفراتي :

. سيقوم المكتب السلطاني غداً بمظاهرة صباحية صاخبة نشيّع من خلالها شهداءنا، وسندفنهم في مقبرة الشهداء، فهل توافق؟

قال علي بك:

. كيف لا أوافق، وسأكون في المقدمة إن شاء الله.

قال أبو محسن:

. أنا وإخوتي وأبنائي سننضمّ إليكم إن شاء الله.

لم تكن مظاهرة المكتب السلطاني مظاهرة عادية. لقد خرجت دير الزور على بكرة أبيها تهتف بحياة الوطن وبسقوط فرنسا.. المدرّسون يحملون اللافتات القماشية المعبِّرة، والطلاب قَدْ حملوا الطالب جلالاً الذي ما انقطع هتافه طوال المسيرة، وثمّة نساء تجمّعن في زوايا الشوارع يزغردن.

استمر سير ا لمسيرة حتى مقبرة الشهداء، حيث وارى المناضلون جثامين رفاقهم، وقد أقسموا على الثأر لهم، ثم عادوا بالحماسة نفسها التي جاؤوا به.

بقيت دير الزور تمور غضباً وهيجاناً، فقوافل الشهداء لم تنته، والمقبرة على رحبها ضاقت بهم، فقرروا توسيعها من جهة الشرق والغرب، وإحاطتها بسياج من الأشجار الحراجية، وتطوع أحد المناضلين برعاية الأشجار وحمايتها.

قال علي بك لجلساء مضافته:

. يجب أن تحذروا العملاء،إنهم أخطر من العدو المحتل، فالعدو نعرفه، أما العملاء فهم يتخفّون بأزياء لا تخطر على البال.

قال أبو ياسين:

أليسوا هم أنفسهم الذين ارتضوا أن يعملوا في جهاز الاستخبارات الفرنسية؟

. لا يا أبا ياسين... العملاء أفدح خطراً منهم، قَدْ يجلسون معكم دون أن تعرفوا هويتهم.

. وكيف لنا أن نعرفهم؟!

. لا تجالسوا أحداً غير أعضاء الخلية، أو من تثقون بهم، وإيّاكم أن تتحدّثوا بأمور السياسة والحرب أمام أحدٍ، فتأمنوا شرّهم. واصلوا كمائنكم ضد الفرنسيين كما اتّفقنا. اضربوا واهربوا كحرب العصابات، فالعدو لا يخشى شيئاً سوى هذا النوع من الحروب.

أخذت الكمائن المنظّمة المدربّة تقلق العدو الفرنسي، ولعل أكبر كمين قادة الشيخ محمد سعيد من مركزه في /عياش/ فقتل اثني عشر ضابطاً فرنسياً كانوا متوجّهين لحضور اجتماع مهم، وعندما اتهّم المكتب السلطاني بهذه العملية أخذ يضيّق على الطلبة والمدرّسين الذين تحدّوا الحصار، وخرجوا بمظاهرة صاخبة أحرقوا فيها العلم الفرنسي، ورفعوا علم سورية، وعندما حاول الجنود الفرنسيون تفريق هذه المظاهرة الضخمة بالقوة، أحرق الطلاّب عدداً من سيّاراتهم، وقتلوا ستةً من جنودهم، فاستخدم الفرنسيون القوة، واعتقلوا الشيخ محمد سعيد ونفوه، بينما استطاع الشاعر الفراتي وعدد من المدرّسين الفرار إلى العراق، وتخفّى ناظر المدرسة في قرية تبعد سبعين كيلو متراً عن المدينة، غير آسفين على تسريحهم من الخدمة، ولا مكترثين بالأحكام الصادرة بحقّهم غيابياً، وغدا عام 1928 عام النضال الحقيقي ضد الفرنسيين المحتلّين، كما غدا عام النكبات والمحن، إذ زمجر الفرات غاضباً فجرفت ألسنته الصخرية كلّ المؤن، ودمّر ملاعب الأطفال، ومجالس الشيوخ، واستراحات النساء، وتخطّى بضع درجات من بيت أبي ياسين، ومنع ساكني البيوت من الخروج، وعلت أصوات المتشاطئين: (أبو عبّار غرق). فقد أراد هذا الرجل الشهم أن ينقذ أناساً ومراكب وأمتعة، فجرفه التيار ولم يترك له

أثراً، حتَّى إن الفيضان في تلك السنة سمّي باسمه، وأصبح أبناء دير الزور يذكرون بألم تاريخ الرابع والعشرين من نيسان عام ثمانية وعشرين وتسعمائة وألف ذكرى (فيضة أبي عبّار).

قال علي بك لجلساء مضافته العامرة:

. أتدرون يا إخوتي أن فرنسا بدأت بإنشاء جسر جديد على نهر الفرات، وقد صممه مهندس فرنسي لم يصمم مثله إلا جسراً واحداً، اشتروه منه في سان فرانسيسكو.

قال الأستاذ ثابت مستهزئاً:

. إنهم يريدون الجسر لتنفيذ مآربهم، وتحقيق مصالحهم، وتيسير أمورهم التي أربكها مناضلو خشام والطابية والمريعية وما حولها... صدّقني يا أخي، عندما تنتهي مهمّتهم بهذا المكان سيدمّرونه.

. لنتركهم يا أخي الآن يُنشِئون هذا الجسر، ولا ننسى أنّ من سيبنونه هم أبناء اللواء وليس الفرنسيون، ومهما كان الأمر يبقى هذا الجسر لصالح أبناء اللواء الذين سيعرفون جيداً كيف يمنعون تدميره.

. سنكون لهم بالمرصاد إن حاولوا استغلاله ضدنا، وسيجد الفرنسيون منا ما لا يسرّهم.

. ما أخبار ناديك الثقافي؟

. منذ يومين ألقى ابن عمّنا عبد الوهاب محاضرة مهمّة عن (المستقبل وتطلعات الجماهير)، وسيلقي غداً الأستاذ راغب محاضرة ثقافية مهمّة أيضاً عن (الوحدة والتجزئة)، وبعدها بثلاثة أيام سيحيي الشاعر توفيق أمسية شعرية...

. انتبه يا أخي فناديكم مراقب مراقبة شديدة.

. أعرف ذلك، وسأجعل كل العناصر الموكلة لها مراقبة النادي إما محاضرين، وإما شعراء أو أنها تمل وترحل بصمت.

. سيكون في المدينة نادٍ آخر، وهو سيمارس تحت ستار الرياضة مهامه النضالية واسمه /نادي الجراح/ تيمناً بالقائد العربي (أبو عبيدة بن الجراح)، وقد وافق عليه الحاكم الفرنسي (جاكو)، ومتصرف الفرات رشدي الصفدي شريطة ممارسة الرياضة دون غيرها، فوافق رئيس النادي السيد قاسم هنيدي ومديره الشاعر توفيق قنبر.

. سنقف جنباً إلى جنب مع هذا النادي لأنَّه سيكون بؤرة ثقافية.

. طبيعي ذلك، وسندعمه بكل المستلزمات المادية والمعنوية.

صمت علي بك، وكأنه يفكّر بأمر ما ثمَّ ما لبث أن قال:

. يا أبا زهير، سمعت أنك ستسافر قريباً إلى موسكو؟

. دعوة تلقيّتها، وسألبي الدعوة إن شاء الله.

. أبا زهير، الروس باردون، ونحن شعلة نار، فكيف سنتّفق معهم؟.

. أبا راغب... عدوّ عدوّك صديقك، وكل دعم منهم سيخدم قضيتنا المصيرية وسيكون خيراً إن شاء الله.

. الخير في ما اختاره الله.

. أبا راغب... هناك استفسار والتباس حول العَلَم السوري، كيف كان وكيف أصبح، ولماذا؟

. العلم يا أبا زهير كان عَلَم شرقي الأردن وعَلَم العراق، وكانت فرنسا لا تريده لأنَّه صنيعة بريطانيا. كان ذا ثلاثة ألوان، من الأعلى الأسود فالأبيض فالأخضر وعلى الطرف الأيسر منه زاوية حمراء في وسطها نجمة بيضاء ذات سبعة أشعة. يرمز الأسود فيها لراية العباسيين، والأبيض لراية الأمويين والأخضر للفاطميين، والمثلث الأحمر للثورات العربية، والنجمة البيضاء لسوريا.

العراق اختصّت بنجمتين، على أن تُلغي النجوم عند تحقيق الوحدة بين الأقطار الثلاثة.

الوطنيون وضعوا في مشروع الدستور العلم الجديد بألوانه الثلاثة (أخضر، أبيض، أسود) وعلى الأبيض ثلاثة نجوم حمراء ذات خمسة أشعة مسايرة لفرنسا ومزاعمها، ولم يفرّطوا بالألوان الأربعة للعَلَم العربي وإنما تساهلوا في تغيير شكل العَلَم السوري.

. إذا كان الأمر هكذا، فلا يضير شيئاً.

التوتّر ما زال يلفّ اللواء كلّه، ففرنسا جاءت لتبقى، وإن لم يستطع الثوار إخراجهم اليوم، فإن الأيام القادمة حبلى بالأحداث، ستتضافر الجهود مدينة وريفاً كما كان سابقاً، لكن بوتيرة أعلى وقوّة أشد...

كان أبو ياسين وعائلته يسهرون معظم الليل في تجهيز الذخائر والمتفجّرات ليوم يرونه قريباً...

وحدث ما توقّعه أبو ياسين:

تفجّر الموقف في البوكمال، وطغى على الأحداث كلّها.

قال علي بك.

. ضابط الارتباط بيننا وبين مناضلينا في البوكمال هاهو الآن هنا بينكم، وسيحدثكم بالتفصيل عن مجريات الأحداث.

وقف أحمد الصباغ، وقال:

. منذ أن دخل الفرنسيون البوكمال عيّنوا مستشاراً لها يدعى /تاكه/، قام هذا المستشار بممارسات مذلّة للأهالي وبدأ يفرض الضرائب على السكان، ويتذرّع بأتفه الأسباب من أجل تأديب شيوخ المنطقة، وقد فرض ضريبة مقدارها تسعون ليرة ذهبية وخمس وعشرون بندقية على عشيرة /الحسون/ من العقيدات، فوقف الشيخ مشرف الدندل رافضاً هذه الضريبة، مقرّراً التصدّي لفرنسا بكل ما يملك من قوّة، وكانت الخلية الثورية والمقاومة الشعبية كلها معه، وتوصلنا بالأمر إلى تنبيه القرى كافة للامتناع عن إعطاء الضرائب، وأخذ الحيطة والحذر، ونصب الكمائن على طريق دير الزور . البوكمال، ومهاجمة أية قوة تأتي من هناك، وبالفعل قَدِمت ثلاثون سيارة ومصفّحة من دير الزور، فأطلق عليها الكمين النار بعد أن سدّوا الطريق بالحجارة، وقتل قائد الحملة (شوفليه) مع عدد كبير من جنوده ولاذت بقية الحملة بالفرار إلى دير الزور، وقد جُن جنون القوات الفرنسية، فألقت الطائرات الفرنسية المناشير تطالب من خلالها الشيخ مشرف الدندل باعتقال منفّذي الهجوم وتسليمهم للمحاكمة وإلا تعرّضت المنطقة بالكامل للقصف الجوّي، فرفض الشيخ مشرف هذا الطلب، فأصدر الفرنسيون عليه حكماً بالإعدام، ممَّا اضطرّه إلى اللجوء إلى العراق مع أفراد أسرته، وألقت القوات الفرنسية القبض على شقيقه عبد الله وابن عمه محمد الهامة فحكمت عليهما بالسجن المؤبّد. استطاع عبد الله أن يفرَّ من السجن بمساعدة اللجنة الثورية، بينما توفيّ محمد في السجن.

جلس أحمد الصباغ، وقد أثنى عليه علي بك، وقال:

. في الغد يا إخوتي قد تنفجر الشرارة الثانية من دير الزور. ستقام مباراة في الملاكمة بين /فريد عليوي عضو نادي الجراح وملاكم فرنسي مشهور اسمه نيكولايدس/، والحكَم فرنسي، لذا سينحاز الحَكَم حتماً إلى الملاكم الفرنسي، وهذا ما سيغضب الجمهور، فأرجو أن تأخذوا المزيد من الحيطة والحذر، والاستعداد لقتال ربّما يكون ضارياً. راقبوا الطرقات، وانصبوا الكمائن، ودعوا القناصة يحتلون أماكنهم على الأسطحة، فربما يكون الغد حاسماً إن شاء الله.

قال أبو ياسين:

. أتسمح لي أن أدع زوجتي وأمها تأخذان مكانيهما في ساحة الأحداث؟

. لا يا أبا ياسين. ليس الآن أرجوك.

. لكنني أحتاج إليهما في نقل الذخائر والمتفجّرات.

. إذن أوافق بحدود ضيّقة أرجوك.

. كما تريد.

وجرت المباراة في الموعد المحدد، وقد تجمّع مئات من المتطوعين الشباب، وكل واحدٍ منهم يخفي مدية وعصا عجراء في ثيابه ينتظرون اللحظة الحاسمة، وصعد الملاكم الديري وحيّا الجماهير المحتشدة، فصفّقوا له طويلاً، وعندما صعد الملاكم الفرنسي حيّا قادة الاحتلال الجالسين على المنصة، فبادلوه التحية والتصفيق أمام صفير الجماهير.

أطلق الحَكَم صافرة البدء، فأخذ الملاكمان يتراقصان قليلاً ويدوران في الحلبة، والحَكَم يتابعهما باهتمام. أخذ الملاكم الديري زمام المبادرة، فوجّه اللكمة تلو الأخرى على وجه الملاكم الفرنسي حتَّى أدماه، وضربه ضربة أخرى مصحوبةً بتصفيق الجماهير، فترنّح الملاكم الفرنسي على أرض الحلبة، والصيحات تتالى: الله أكبر... الله أكبر وعندما شعر الحَكَم أن الملاكم الفرنسي لم يعد يقوى على الوقوف أنهضه ورفع يده عالياً منهياً المباراة لصالحه معلناً للجماهير أن الملاكم الديري لم يلتزم بقواعد اللعبة فضرب الملاكم الفرنسي بمكان ممنوع جعله يئن ويترنّح، فوقف الشاعر توفيق قنبر متحدّثاً بالفرنسية كلاماً قاسياً، ثمَّ ارتجل قصيدة شعرية أججت المشاعر، فهاج الشعب، وأخرج كل واحد منهم مديته وعصاه، وهاجموا الفرنسيين، فقتلوا عدداً كبيراً منهم، وجرحوا عدداً أكبر، حتَّى أصبحت حلبة الملاكمة وما حولها ساحة حرب دموية، وخرج الشعب بتظاهرة كبيرة أحرقوا فيها ثلاث سيارات فرنسية، ولم تنته هذه الثورة إلا باستخدام العنف، فاستشهد عدد من المناضلين، وألقوا القبض على واحد وخمسين مناضلاً أودعوهم السجون، ،وأصدروا أحكاماً قاسية على المناضلين الفارّين وعلى رأسهم المناضل توفيق، قال علي بك وهو يهز رأسه:

. رحمة الله على شهدائنا. شهداؤنا في الجنة، وقتلاهم في النار.

قال المختار:

. لقد رأيت بأم عيني كيف قاتل آغوب، ولم يجبن عندما أحاطوا به... رأيته يقتل عدداً من الفرنسيين، ويجرح بعضهم قبل أن يُقتل... يا إلهي! كم كان بطلاً!.

. هو الوفاء يا أبا عدنان، رحمة الله عليه وعلى شهدائنا الآخرين، وعلينا أن نزور عائلاتهم لنواسيهم، ونوزّع عليهم بعض المؤن، وسيرافقنا أبو صادق الميكانيكي وأبو ياسين.

. أجل يا أبا راغب، وكل شيء جاهز، وستنطلق العربة معنا.

أولى الزيارات كانت إلى بيت أحمد الصباغ... كانت الأم تهذي باسمه كل آونة، وسعدى لم تنضب دموعها رغم مواساة والدها وحديث أبي راغب عن بطولاته، وكيف استشهد بعد أن قتل ستة فرنسيين أحاطوا به من كل جانب، أمر أبو راغب بوضع المؤونة المخصصة لآل الشهيد في منزله وقبّل الحسن والحسين قبلات دامعة ولم يستطع المكوث طويلاً، فودّعهم هو وأعضاء اللجنة على عجل ثمَّ توجهوا إلى بيت آغوب، حيث استقبلتهم (أناهيت) أرملته التي ارتدت ثوب الحداد على روحه. قدمت لهم الضيافة اللائقة، فقال علي بك:

. يا أخت (أناهيت)، أنت تعلمين ما نكنّه للمرحوم من حب وتقدير، فهو والله واحد منّا، ويكفينا فخراً أنه ضحى بروحه من أجل حريتنا، رحمه الله وأسكنه فسيح جنّاته.

قالت أناهيت:

. يا أبا راغب... نحن لم نهرب من الموت حتَّى في أحلك الظروف، كنّا نحبّه كثيراً لأنَّه الخلاص من البؤس والحرمان والظلم والعدوان... ساقنا أعداؤنا إليه، فسرنا في طريقه، ونذرنا أنفسنا قرابين للحرية والعدالة، سواء أكنّا في أرضنا المغتصبة، أم في أرضكم المحتلة. نحن أصحاب رسالة مثلكم، والحمد لله على ما كتب وما قسم.

قال المختار:

. يا أختنا الكريمة، اقبلوا من علي بك هذه المؤونة.

وكان سائق العربة قد أنزل كيساً من الطحين وآخر من البرغل وعلبة من الشاي، وصفيحة من الزيت.

قالت أناهيت مشيرة إلى أبي صادق:

. هذا الرجل الشهم لم يتركنا بحاجة أبداً، والله إنه يعطينا فوق حاجتنا أضعافاً مضاعفة، ولا حاجة لي بها أبداً. أرجو أن تعطوها لمن هو بحاجة ماسّة إليها.

قال علي بك:

. إن كنت يا أختنا لست بحاجة إليها، فوزّعيها صدقةً على روحه الطاهرة.

قال لها أبو صادق:

. خذيها يا أختاه، أرجوك.

هزّت أناهيت رأسها موافقة، وشكرت أعضاء اللجنة على زيارتهم لها.

قال علي بك، وهو وفي الطريق إلى عائلة الشهيد مصطفى:

. يا مختار، كان مصطفى رحمه الله أول من أطلق النار على حَكَم المباراة، ولم يُقتل إلا بعد أن قتل ضابطين كانا جالسين على المنصّة، إنه يستحق التكريم والله.

. أجل يا أبا راغب، ووالله كان مقاتلاً شرساً.

قال أبو ياسين:

. كنتُ والله أنوي تزويجه حماتي /شاكي/ فقد أُعجب بها رحمه الله، وأعجبت به أيضاً، وكان فقيراً لم يقوَ على الزواج، وقد تجاوز سنة الخامسة والأربعين، لكنّ المقادير كانت تترصّده.

ابتسم علي بك قائلاً:

. لو كنتُ أدري بحبّه لشاكي لما ترددت لحظة واحدة في تزويجها له، ولدفعت المهر وكل مستلزمات الزواج.

طرق المختار باب أهل مصطفى، ففتح بعد حين، وتمخّض عن عجوز تتوكأ على عصا. كانت تنظر إلى القادمين إليها بعينين غائرتين دامعتين، وفمها الأدرد يطلق عبارات الترحيب.

دخل علي بك البيت مع أعضاء اللجنة، وجلسوا في فناء بيتٍ يشكو من قلّة الجرذان فيه... هزّ علي بك رأسه وقال متنهّداً:

. لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم... لِمَ لم تخبرني يا مختار عن أحوال هؤلاء الفقراء؟ سامحك الله.

. يا سيّدي... أقسم لك بالله العظيم أنني كلّما عرضت على مصطفى مساعدة مادية أو غيرها كان يردّ عليَّ بغضب: الحمد لله على نعَمه، لا ينقصنا أي شيء سوى حرية الشعب.

. يا أبا عدنان، أنت مختار، وهي مسؤوليتك. كان عليك أن تزوره في البيت لتستكشف أحواله. أنظر جيداً، لا شيء في بيته البتة. كيف يكون هذا؟

قطعت العجوز على علي بك حديثه عندما جاءت إلى ضيوفها، وقدّمت لكل واحدٍ منهم كأساً من الأعشاب الطبية قائلة:

. إنها خلطة جمعتها بنفسي من بساتين الرويلي جزاهم الله خيراً. إنها أفضل من الشاي والقهوة. اشربوها هنيئاً مريئاً.

كان علي بك على ثقة من أن ليس في بيتها سكّرٌ أو شاي أو قهوة، لكن أبت نفسها الشكوى إلا لله. قال بعد لأي:

. يا أماه... أنت أم الشهيد ونحن كلّنا أبناؤك، اطلبي وتمنّي علينا، والله سنلبي مطالبك مهما ثقلت علينا.

ابتسمت العجوز وقالت:

. يا ولدي... لقد رحل زوجي إلى دار الآخرة، وترك لي ولدين. واحداً مات بالسل، ومصطفى استشهد في سبيل الله، وأنا أنتظر لقاء ربي. لا أريد من الدنيا شيئاً.

. يا أماه... أرجو أن تقبلي منّا هذه المساعدة.

وأشار إلى العامل أن يُدخلها إلى بيتها (الطحين والبرغل والسكر والشاي والزيت).

يا أماه، سأزورك إن شاء الله من حين لآخر لأرى احتياجاتك، وإن لم يسعفني الوقت، فسيزورك المختار، ويقوم بالواجب.

. شكراً يا ولدي، والله لا أريد شيئاً إلا رحمة ربك.

جفف علي بك دموعه التي هطلت رغماً عنه، وقال لأبي عدنان:

. يا أبا عدنان... أرجوك أن تدوّن لي قائمة بأسماء الفقراء والمحتاجين.

ابتسم المختار، وقال:

. يا أبا راغب، عمّن أدلّك وأسجّل لك؟ الشعب معظمه فقير، وزاده الاحتلال والقحط واليباس والفيضان فقراً ومعيشة ضنكاً.

هزَّ علي بك رأسه وقال لنذهب إلى عائلة الشهيد طارق.

كان طارق رحمه الله من المناضلين الصلبين الذين نذروا أرواحهم لخدمة الوطن، وكما كان متفوّقاً في دراسته، كان متفوّقاً في عمله التجاري والزراعي، لكنه لم ينسَ ثأر أبيه من الفرنسيين، وكانت زوجته الأرمنية (لوسين) وابنه زياد يمثّلان أمامه قضيّة. عند استشهاد والده وقف عمّه مصلح إلى جانبه أباً وأخاً وصديقاً،

وكانت لوسين التي كان يسميها (القمر) قمراً مضيئاً ليس في حياة طارق وحده وإنما في حياة العائلة بأكملها، لتفانيها في حبّ زوجها وولده وأعمامه وأُسرهم، إضافة إلى أنها كانت تدير تجارته وزراعته بذكاء ومهارة نادرتين، وتنثر الخير عليهم جميعاً بطريقة لبقة لم تتعوّدها الأسرة من قبل.

كان طارق من القناصة المهرة، استطاع أن يقنص أكثر من عشرة جنود فرنسيين وسنغاليين قبل أن يستشهد.

استقبل مصلح أبا راغب وأعضاء اللجنة بترحاب كبير، وما هي إلا دقائق حتَّى دخلت لوسين وولدها زياد. احتضن علي بك زياداً وقبّله، وبلّل وجنتيه بدموعه، وكذلك فعل أعضاء اللجنة. قال علي بك:

. زياد يا ولدي، ولتسمع أمك وعمك ما أقوله: طارق حيّ في قلوبنا كما هو حال والده الشهيد، لترفعوا رؤوسكم عالياً لأنَّ شهيدين عظيمين مثل طارق وأبيه يمثّلان رمزين لا يمكن تجاهلهما على مرّ السنين... هذه رؤوسنا نحنيها لله أولاً ولهما ثانياً لأنهما غرسا فينا حب الشهادة وضرورة تحرير الوطن مهما غلت التضحيات، فهنيئاً لكم هبة الشهادة التي يهبها الله لمن اصطفى من عباده.

قال مصلح:

. يا علي بك، وليسمع أعضاء اللجنة الكرام بأنني منذ هذه اللحظة جندي مقاتل في سبيل الله والوطن. أريد أن ألحق بكل فخر بأخي وابن أخي فلا تحرموني نعمة الشهادة.

قالت لوسين بعد أن كفكفت دموعها:

. أنا والله لن أبخل بحياتي لألحق بزوجي وعمي، وأرجو أن تقبلوني مع النسوة اللاتي يشاركن في المقاومة الشعبية.

قال زياد:

. وأنا يا أمّاه... أنا لست صغيراً، انظري...

وأخذ يمط بجسمه الصغير ليتطاول...

ضحك علي بك، وأعضاء اللجنة من رؤية زياد وهو يحاول أن يمطّ جسده الصغير أكثر فأكثر، وقال:

. كلّنا للوطن يا أبنائي، كلّنا إلى الجهاد إن شاء الله.

قالت لوسين وقد أخرجت من جيبها وريقة:

. علي بك... هذه وصية زوجي، كتبها قبل استشهاده، وأوصاني أن أسلّمها لك عند استشهاده فأرجو أن تتسلّمها.

كانت الوريقة تحتوي على عشرة أسماء لطلاب من المكتب السلطاني يودّون الاستشهاد في سبيل الله، وهم على استعداد لتفجير أنفسهم في تجمّعات الفرنسيين. قرأها علي بك بتمعّن، وطواها، ودسّها في جيبه.

في الطريق إلى المضافة، أصرّ المختار وأبو ياسين وأبو صادق الميكانيكي على معرفة وصية الشهيد طارق، فأطلعهم علي بك على مضمونها.

قال أبو ياسين:

. هل تعتقد يا علي بك أن أمةً بها مثل هؤلاء الشبّان يمكن أن تقهر؟

. لا والله... أبداً. ولكنني لن أضحي بواحدٍ منهم.

إنهم أوائل الطلبة، وعليهم المعوّل في مستقبل اللواء. ليتابعوا تعليمهم فهو الجهاد الأكبر.

# (17)

تتالت الضربات على باب بيت أبي ياسين، وصوت المختار يعلو مع كلّ طرقةٍ منادياً أبا ياسين، ولمّا لم يُفتَح الباب، حوقل المختار وبسمل طويلاً، وساءل نفسه وهو يهبط الدرجات الخمس: (تُرى أين ذهب أبو ياسين؟ ثمَّ أين زوجته وأمها؟! لابدَّ أن أمراً طارئاً قد حدث... يا رب اجعلها خفيفة عليهم).

ووقف أمام درجات البيت، وأخذ يقدح زناد الفكر... يفكّر ويخمّن، وكل أونةٍ يعلو صوته: لا سمح الله... لا قدّر الله... اللهم احفظهم من كل مكروه. وعندما همّ بالذهاب فوجئ بأبي ياسين يقف قبالته:

. أين كنتَ يا رجل؟! لقد شغلتني والله... ثمَّ أين زوجتك وأمها؟ أين؟

. تعال يا أبا عدنان لندخل البيت أوّلاً، ومن ثمَّ سأروي لك أين كنّا، وأين زوجتي وأمها... ادخل يا أبا عدنان، وستشرب معي كوباً من الشاي الأحمر اللذيذ... هيّا.

كان بيت أبي ياسين مرتّباً نظيفاً منذ أن تزوّج أم ياسين، وكانت أشلاء أسلحته مرتّبة لامعة على طاولتها...

بسرعة أشعل طبّاخاً ميدانياً، ووضع إبريق الشاي عليه، وجاء بكوبين نظيفين وعلبة السكر ومصفاة الشاي، ووضعها أمام أبي عدنان...

كان أبو ياسين يدندن وهو يسير بأغنية أرمنية أذهلت المختار:

. ماذا أسمع؟

. أغنية أرمنية تعلّمتها من زوجتي، كلماتها تقول:

"إيه يا وطني المجيد!

يا من كان يأتيه شذّاذ الآفاق من المضائق والفلوات ليغرسوا الرماح في قلبه...

أيها الصامد على مفترق طرق الأمم المتحاربة تحت كابوس العصور القاسية وسنابك الخيل الهائمة لقد لقّنتَ روحي الحكمة بلسانك كي أغنّي حبّك"

. الله... الله يا أبا ياسين. كلمات جميلة، وصور حلوة، هل ترفندا شاعرة؟

. لا. إنها تردد دائماً شِعر (أواديك) قريبها.

. صدّقني يا أبا ياسين إنهم سينتصرون.

. أعرف ذلك... اسمع هذا الشعر أيضاً:

"إذا انحزتُ نحو الضعفاء تأكلني الديدان
فأية حاجة تبقى للأسود؟!
وإذا نجوت من الدببة المفترسة
يتعلّق بي البعوض المتعطّش إلى الدماء
وإذا جلستُ غير عابئ
تنزل عليّ البراغيث الحقيرة مثل شرر نارٍ مذرو
وإذا هربت من نطح ذي قرون
تناولتني مخالب الكواسر الجارحة الجائعة
وإذا التجأتُ إلى غرف العنابر العفنة
تتلقّاني رائحة الضفادع قبيحة المنظر الكريهة".

. ماذا أسمع اليوم؟ والله إنها أمسية شعرية... ومن قال هذا الكلام الجميل؟

. قالت لي إنه من حواريّات شاعرهم الكبير كريكور ناريكاتسي.

. أصبحتَ شاعراً يا أبا ياسين... لأنَّ من يحفظ مثل هذا الشعر يسهل عليه الإتيان بمثله...

. أنا أتذوق الشِعر ولا أنظمه يا أبا عدنان، ولتعلم أنني كلّما شربت الشاي الأحمر أحببت أن أسمع الشِعر، فتقوم أم ياسين بهذه المهمة دون كلل أو ملل.

. بارك الله لك فيها يا أخي. لكن أين زوجتك وأمها؟!

. إنهما في مهمة إنسانية وتكتيكية بآن واحد.

. لم أفهم قصدك!

. ستفهم بعد قليل.

سكب أبو ياسين كوبين من الشاي القرمزي للمختار وله قائلاً:

. انظر ما أجمل هذا اللون يا مختار! إنني أعشقه.

. إنه يذكّرني بدماء الشهداء... إنه لونه يا أبا ياسين.

. ولهذا أحبه لئلا تغيب صورته عن عينيّ.

. الآن قل لي يا أبا الأسرار: أين عيالك؟

. إنهما يتفقّدان الأرمنيّات، وإني أبشّرك بأن عدد الملثمات سيزداد خلال أيام.

. بارك الله فيهن، والله أعطين وأوفين.

. أريد أن أسألك يا أبا عدنان عن أخبار سعدى.

. سعدى بعد رحيل زوجها تقوم بخدمة أم أحمد، وتهتم بتعليم ولديها الحسن والحسين.

. سمعت أن أم أحمد مريضة، ما رأيك بزيارتها؟

. واجب يا أبا ياسين، وسنزور بعدها أبا سلطان.

. أبو سلطان؟ ما به؟

. قيل لي أنه مريض.

. إذن وجبت زيارته أيضاً. قم لنذهب.

كان النهر يعزف لحن المساء بأوتار القلوب المكلومة، والشجر يرقص مذبوحاً من النواح الذي يتردد بصوتٍ عالٍ من شرفات البيوت ونوافذها، والهواء مثقل بالأنين والزفرات...

الخريف يمرّ من بوّابة الوقت ليغفو على وسادة العمر، والدمع يكتب في صحائف الذكريات أحلام النبض الخافق ونثار القلب ووجيب الزهر المدمّى...

فضاءات الروح ملأى باللواعج وأغاني النخيل الشجية، الفؤاد جمرة، والدم صهيل، وعويل الريح بُردة الأجساد.

يتناهى إلى الأسماع صوت ينوح:

**بجت عيني وعين أمّي عليهم تجدّد يا حزن قلبي عليهم**
**أشوف البين مد إيدو عليهم مثل سيل تحدّر عل وطا**

كفكف المختار دموعه خلسة، بينما كان أبو ياسين يردّد مع القاصودة بعض المقاطع، وكان يزمجر من آونة لأخرى، مهدّداً الفرنسيين بالثبور.

تملّكتهما الدهشة عندما شاهدا علي بك يخرج مودّعاً من بيت أبي أحمد الصباغ، فوقفا جامدين. اقترب منهما علي بك قائلاً:

. أسرعا، فأم أحمد لم تعد تعي ما تقول. إنها في النزع الأخير.

. وأنت؟ إلى أين تودّ الذهاب؟

. إلى أبي سلطان. بلغني أنه مريض أيضاً.

. إذن نذهب معاً.

. ادخلا بسرعة، وأنا بانتظاركما.

دخل المختار وأبو ياسين بهدوء. كانت زوجة أحمد تلبس السواد، وتتحدث مع حميدة أخته حديثاً جانبياً. توقّفتا عن الحديث عندما رأت سعدى والدها مع أبي ياسين. أسرعت سعدى، وقبّلت يد والدها، وحيّت أبا ياسين. دخلوا جميعاً غرفة أم أحمد، وقد أحاط بها حفيداها الحسن والحسين، بينما سامي يذرف الدموع سخية...

اقترب منه المختار، وربّت على كتفه قائلاً:

. كلها بيد الله وبأمره يا ولدي. إن حدث مكروه لا سمح الله، فأنا في بيت أبي سلطان.

ألقى المختار النظرة الأخيرة على أم أحمد، وهي مغمضة العينين تهذي باسم أحمد... حوقل أبو ياسين وبسمل، ولم يستطع أن يتمالك نفسه. فجرّه المختار على عجلٍ، وخرجا من البيت.

كان علي بك ينتظرهما. ساروا قليلاً، ثمَّ قال علي بك:

. كيف رأيتما أم أحمد؟

قال المختار متنهّداً:

. الأعمار بيد الله. أظن أنها مودّعة.

قال أبو ياسين:

. كلّما ذكرت أحمد تمزّق قلبي.

قال علي بك:

. أوصيك يا أبا عدنان بها. عليك أن تراقب وضعها الصحي باستمرار. يجب ألا تقصّر بحقّها. ثمَّ أخبرني أوّلاً بأول.

. سأفعل إن شاء الله.

. أعلمتم بآخر الأخبار؟

صمت المختار وأبو ياسين، وحدّقا في عيني علي بك طويلاً:

. لقد ألقوا القبض على فاطمة الجذمور، وربّما ساقوها اليوم إلى سجن /الميّة ميّة/ في بيروت.

. يا لهم من أنذال! يسترجلون على امرأة!

. لكنها امرأة تعادل مئة رجل يا أبا عدنان. أنسيتَ ما فعلته بالفرنسيين وهم يطاردون الثوار؟

. لا أبداً. وكيف أنسى؟ لقد رشّت مسحوق الفليفلة الحمراء الكاوية في عيون الجنود الفرنسيين، وكان الثوار من جرّاء ذلك يقتلون الجنود الفرنسيين ويسلبونهم سلاحهم، لقد تسبّبت في مقتل أكثر من عشرين جندياً فرنسياً.

. لهذا السبب يعاقبونها عقوبة شديدة. سنحاول يا إخوتي إنقاذها بكل ما أوتينا من قوة.

. كيف؟

. التربّص بالسيارة التي ستنقلها إلى بيروت، والاستيلاء عليها في الطريق إلى حلب.

. لكننا لا نعرف متى سيتم سوقها!

. سأعرف، وأبلّغكم.

توقّفوا عند باب خشبي عتيق. قرع المختار الباب بهدوء، فتمخّض عن فتاة رائعة الجمال رغم تقادم السنين عليها. وجهها خال من الأصبغة. عيناها الواسعتان يسكنهما حزن عميق. تمتمت شفتاها المكتنزتان عندما رأت أصدقاء والدها:

. أهلاً بكم، تفضّلوا.

دخلوا غرفة الضيافة وجلسوا، ثمَّ وقفوا عندما دخلت أمها، ثمَّ تبعتها ضرّتها، فهلّلوا ورحّبوا طويلاً...

قال علي بك:

. أين أبو سلطان؟

قالت أم سلطانة:

. إنه في غرفته معتكف حزين على فراق أم سلطان.

. قيل لي إنه مريض؟

. لا. الحمد لله ليس مريضاً.

. إذن دعيه يأتِ إلينا.

. بالحال إن شاء الله.

دخل أبو سلطان بلحية كثّة ووجه شاحب. سلّم على الجميع، وجلس متهالكاً.

قال علي بك:

. ما شاء الله عليك... ماذا تفعل بنفسك يا رجل؟

. لقد انتهيت يا علي بك.

. انتهيت؟ ما هذا اليأس؟ ميرنا رحلت شهيدة يا أخي. إن الله يحبّها. ادعُ لها بالرحمة، وانفض غبار الكسل واليأس والقنوط. أمامك يا أبا سلطان مهمّة شاقّة.

. أنا جاهز. لم يعد أي شيء يمنعني من اللحاق بأم سلطان.

. لكن أين سلطان.

. إنه ما زال عند الملا حسن يتلقى دروس الفقه والحديث والنحو والبلاغة على يديه. لكنه سيحضر قريباً. هذا موعده. ماذا تشربون؟

قال المختار:

. نريد شاياً، لكن ليس مثل شاي أبي ياسين.

. على الرحب والسعة.

خيّم الصمت هنيهة، وهمّ علي بك بالحديث، لكنه صمت عندما فُتح الباب ودخل سلطان يحتضن كتابه ودفتره.

عانق سلطان ضيوف أبيه، وجلس قُبالتهم.

قال علي بك:

. ما شاء الله يا سلطان... لقد أصبحت رجلاً.

. لقد تجاوز سني العشرين يا عمّاه، وخالاتي وأختي سلطانه يتآمرون عليّ لتزويجي.

. ونِعم التآمر يا ولدي، وأنا وأعمامك نضم أصواتنا إليهنّ.

. لكن يا عمّاه...

لم يدع علي بك سلطاناً يكمل عبارته، فقال:

. يا ولدي، الزواج نصف الدِّين، وعصمة للمسلم... لك عليّ والكل يشهد على ما أقول: إن مهرك وتجهيز عروسك عليّ وحدي، فقط أريد منك أن تقول من هي كي نذهب لنخطبها لك، دعنا نفرح بك، نريدك أن تملأ البيت أطفالاً، فالحزن يجب ألا يتسلل إلى بيوتنا ونفوسنا لئلا نموت جزعاً...

. ألا ترى يا عمّاه أن الوقت غير مناسب الآن؟!

. لِمَ يا ولدي؟

. يا عمّاه، بلادنا محتلّة، ولي أمنية أن ألحق بأمي إلى الجنّة.

. يا ولدي، الاستشهاد هبة من الله، يهبها من يشاء من عباده... خالد بن الوليد رضي الله عنه كان يتمنّاها فلم يعطِها الله له. ليس معنى ذلك أنه ليس شهيداً. والجهاد الأكبر يا ولدي أن تهتم برزقك وأرزاق أهلك وعائلتك، واعلم أن الملائكة تضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم مثلك.

دخلت سلطانة، وقدّمت أكواب الشاب للجميع، فشربوا وحمدوا الله، وقام علي بك، واقترب من سلطان، ودسّ في جيبه صرّة من المال. حاول سلطان رفضها، لكنّ عليّاً أقسم عليه، فقبلها شاكراً.

قاموا جميعاً، وأمسك علي بك بيد أبي سلطان قائلاً:

. سأراك الليلة في المضافة. إيّاك أن تتخلّف.

. سأحضر إن شاء الله.

في الطريق قال علي بك:

أسمعتم ما ينوي سلطان فعله؟

قال المختار:

. الفضل لله ثمَّ للملا حسن الذي يغرس في نفوس طلابه حب الجهاد والاستشهاد. جزاه الله خيراً.

قال أبو ياسين:

. هل تعتقد يا علي بك أن شيوخ القبائل سيستجيبون لنداء فرنسا حول الإمارة؟

. لا أعتقد، فقد سبق لهم أن حاولوا إغراء آل الجرّاح بها فرفضوها بإباء وشمم، ومع ذلك فقد أرسلنا إليهم مراسيل ورسائل نحذّرهم فيها من خطط فرنسا الدنيئة.

قال المختار:

. ما رأيكما أن نذهب إلى منزل الأستاذ ثابت لنسمع منه أخبار المؤتمر الوطني الذي حضره هو ومحمد بك في حلب؟

قال علي بك:

. لا تستعجلا... سيأتيان إلى المضافة مساء، وسيتحدّثان بتفاصيل المؤتمر وحقيقة الموقف. موعدنا مساء في المضافة إن شاء الله.

# (18)

لقد كان المؤتمر الوطني الذي حضره الأستاذ ثابت والنائب محمد بك بحضور قادة المؤتمر وعلى رأسهم إبراهيم هنانو في حلب ذا أهمية كبيرة على صعيد النضال، فقامت الثورات في كل مكان من سورية، وكانت دير الزور شعلة نضال لا تُخمد. حاول الفرنسيون الالتفاف عليها بدعوة شيوخ العشائر والاحتفاء بهم، ومنحهم الهبات والعطايا، للقبول بالإمارة المنفصلة عن سورية.

حاول الجنرال /جاكو/ بكل ما يتمتّع من ذكاء وفطنة وحنكة، فأخفق إخفاقاً ذريعاً. قال له أحد الشيوخ:

. أنا لا أقبل هداياك وعطاياك يا جنرال، وأقسم بالله أنني وعشيرتي لو أكلنا أوراق الشجر لن نسمح بالانفصال عن سورية الأم، ولن نهادن دعاته بكل ما نملك من قوة وعزيمة.

غضب الجنرال جاكو من هذا الشيخ الذي كان يعدّه ليّناً ومطواعاً فطرده، وتوعّده، فذهب الشيخ إلى عشيرته وهو يصرخ بالكبير والصغير، بالذكر والأنثى: إلى السلاح... إلى السلاح. فاشتعل الريف ناراً حامية أمَّا في المدينة، فقد تشكلت لجنة عليا للحرس الوطني. هاجمت فرقُ الشباب منها ثكنات الفرنسيين وأماكن تواجدهم، واستشهد عدد كبير من المناضلين أبرزهم: سركيس بن ميرنا زوجة أبي سلطان، وسامي زوج حميدة، ورشود، وحمود... وهرب الجنرال جاكو أمام ضربات المقاومة. ولما ضاقت فرنسا ذرعاً بأساليب المناضلين ووسائلهم عمدت إلى اعتقال وجهاء المدينة ظنّاً منها بأن هذه الوسيلة سترغم الشعب الغاضب على الهدوء ونبذ العنف، ولكن المدينة خرجت بأسرها تناهض الاحتلال والطرق الدنيئة التي يسير عليها قادة الفرنسيين، ممَّا اضطر الجنرال جاكو إلى الإفراج عن المعتقلين شريطة وقف الثورة.

سكتت البنادق والهتافات والتظاهرات فترة وجيزة، لكن فرع العصبة الوطنية وقادته رفضوا المهادنة، وآلوا على أنفسهم اتخاذ أسلوب آخر للمقاومة، فدعوا الطلاب إلى الإضراب العام مدة ستين يوماً، وتعهدّ أثرياء المدينة والريف بدعم الفقراء وذوي الحاجة.

حاولت فرنسا فك الإضراب وإعادة الحياة إلى ما كانت عليه سابقاً، لكنّها اصطدمت بكوكبة من الملثّمين أقضّوا مضاجع جنودها، وفتكوا بالكثير منهم.

ضاعفت فرنسا قواتها المدجّجة بالسلاح، وحاصرت الملثّمين. فلم تتمكّن إلا من واحد منهم سقط من صهوة جواده جريحاً، وحُمل أسيراً... استطاع المناضلون بعد معركة دامية فك أسره، وحمله إلى بيت أحد الوجهاء لمعالجته، وكم كانت دهشة الثوار عظيمة عندما كشفوا اللثام عن وجهه... لقد كانت (شاكي) أم ترفندا، حَماة أبي ياسين... تلك المرأة التي لم تكن تتكلم إلا بطلب رسمي، تلك التي تذكّر المؤنّث وتؤنّث المذكر في أقوالها مثل ابنتها أم ياسين. يا لهذه المرأة الشجاعة! التي نذرت نفسها لله ولسورية، لدير الزور المناضلة ولأهلها الذين احتضنوها وابنتها وبنات جلدتها... أرادت أن تضرب مثلاً رائعاً في الوفاء، وكان لها ذلك.

رفع أبو ياسين رأسه عالياً عندما رآها، فقبّل يدها ورأسها وأسمالها المدماة، وقال لها:

. حقاً أنتِ أمّ المناضلات.

فاحتفت دير الزور بها، وتحدثت النسوة عنها طويلاً، وأصبحت مَثَلاً وقدوة، وقد قال عنها أحد الأدباء:

"شاكي يا وردة كيماخ الندية... يا بوح العذابات الطويلة

شاكي يا رمز الحرية والكرامات... يا أم المناضلات...

يا بنت أرارات... شاكي يا أخت موش وطرابزون... يا حبيبة تبليس وماما خاتون... أنت في الدير وفينا مَثَلٌ وقدوة... وفي أرضك المحتلة شعلة وجذوة".

نُقلت شاكي بعد استخراج الرصاصة من ساقها وتجبير كسورها إلى منزل أبي ياسين وسط مظاهرة حاشدة صاخبة.

طوّق الفرنسيون بيت أبي ياسين، وهو مليء بالمناضلين وفي مقدّمتهم علي بك.

طلب على بك من المناضلين البقاء، وخرج إلى القوة الفرنسية التي تحاصر البيت. تحدَّث مع قائد القوّة الذي نظر إلى الضفة الأخرى من النهر مرتاعاً، فرحل وجماعته على الفور.

عاد علي بك إلى منزل أبي ياسين ضاحكاً. قال له المختار:

. ما وراءك؟

. لقد رحلوا عندما قلت لهم بأن الضفة الأخرى من النهر مليئة بالثوار الذين يريدون اقتناصكم واحداً واحداً، وعندما نظر قائد الوحدة إلى الضفة الأخرى، وجد جماعات متفرّقة على الشاطئ، فأخذ وحدته ورحلوا جميعاً.

طلب علي بك من المناضلين الذهاب، كلّ إلى بيته على أمل اللقاء مساءً في المضافة، فرحلوا، وبقي المختار وأبو ياسين مع علي بك. اقتربوا من سرير شاكي، والفرحة تغمرهم. قال علي بك:

. من كان معك من الملثّمين يا شاكي؟

. كانت معي حميدة أخت أحمد الصبّاغ، وسعدى زوجة أحمد، وشاميران زوجة آرتين، وأناهيت زوجة آغوب، وأستخيك زوجة ديكران، وتيريز زوجة سليمان، وآرشو زوجة عبد الحميد، وتامار زوجة عبد الصمد، وروزيت أختها. كنا عشر ملثّمات في مجموعتين... ليتني أعلم ما حلَّ بالمجموعة الأولى. ليتكم تخبروني!

. اطمئنّي لن يكون إلا الخير إن شاء الله. لكن كيف التقيتنّ؟ ومن خطط لكُنّ هذا الهجوم الرائع؟

. إنهما حميدة وسعدى يا علي بك.

صاح المختار:

. حميدة وسعدى؟ يا إلهي!

قالت شاكي متنهّدة:

. نعم، حميدة وسعدى، وقد أقسمنا أمامهما على النضال. يا مختار نحن ظلُمنا ولا يقدّر الحرية إلا المظلوم... نحن مدينات لكم بحياتنا وحياة الآلاف من شعبي...

قال علي بك ذاهلاً:

. أسمعك تتحدّثين بالعربية الفصحى؟ لم تذكّري المؤنّث ولم تؤنّثي المذكر؟ ماذا جرى لك؟

. قرأت كتابكم المقدّس /القرآن الكريم/ فقوّم لساني كثيراً.

. وماذا تنوين فعله بعد شفاء ساقك؟

. سأستمر بالنضال يا علي بك إلى أن ألقى الله شهيدة.

. يا شاكي، أرجوك لا تفعلي ذلك.

. أرجوك أنتَ، دعنا نعمل بصمت وسريّة.

أرجوك...

دمعت عينا شاكي، وهي تتحدث إلى علي بك، فأضافت ناشجة:

. ليتني متّ شهيدة، لكنني سأحصل على الشهادة إن شاء الله. أريد أن ألقى ربي وأهلي في الجنة.

قال علي بك لأبي ياسين:

. يا لوفاء الأرمن! والله إن أعمالهم ترفع الهامات عالياً، في عام 1936 قام جان ماتوسيان الأرمني عندما شعر بأن المؤامرة التركية الفرنسية على لواء اسكندرون مُحكمة أحصى الأرمن الذين يحملون أوراق نفوس من اللواء، وهم بالمئات فساعدهم على السفر إلى اللواء يوم الاقتراع، يوم الاستفتاء، لأنَّ اللجنة الدولية ستدرس رغبات السكان، وجاءت النتيجة لصالح سوريا، واتّهمت لجنة الاستفتاء بالتواطؤ مع العرب، ثمَّ اتّفقت تركيا مع فرنسا على احتلالها بالقوة.

سكت علي بك قليلاً ثمَّ قال:

. أريد منك يا أبا ياسين أن تسهر على راحة شاكي، ولا تنسى أنها أمانة في أعناقنا هي وأبناء جلدتها. أنا ذاهب مع المختار لنطمئن على حال حميدة وسعدى.

سار علي بك والمختار بجوار الشاطئ، وكانا يتأمّلان القوات الفرنسية، وقد وضعت متاريس في عدد من الأماكن البارزة، فضحك طويلاً، وقال:

. لقد صدّقوا أن الثوار سيهاجمونهم عن طريق النهر.

كان المختار يفكر بعمق، حتَّى إنه لم يأبه لما قاله علي بك، فلكزه علي بك بمرفقه قائلاً:

. أين ذهب عقلك يا رجل؟ حميدة وسعدى بخير.

. إن شاء الله.

طرق المختار باب بيت أحمد الصباغ، ففتحت له ابنته سعدى الباب. عانقها بحرارة، وتأمّلها جيداً، فلم يرَ بها ما يريب. قال:

. كنتِ إحدى الملثّمات يا سعدى؟ هل سمح لك أبوك وأمك؟

. يا والدي، لقد اشتقت إلى أحمد. لقد رأيته البارحة في المنام يناديني.

. وأنتِ يا حميدة ماذا تقولين؟

. يا عمّاه، لقد نذرتُ نفسي للشهادة، وقد شجّعتني سُعدى، وأخذت بيدي شاكي، فزوّدتنا بالسلاح والذخيرة بعد أن درّبتنا على استخدام السلاح جيداً.

. متى كان ذلك؟

. منذ أكثر من شهر.

. عجيب أمركما! كيف لم أعلم بذلك؟

. لو كنتَ تعلم لمنعتنا والله.

. يا بنتي حرام عليك الذي تفعلينه.

. يا عماه، أنا لم أتزوج بعد المرحوم سامي، ولا أنوي الزواج، وليس لي هدف إلا الشهادة. أرجوك لا تقف في طريقي، لأنني قررت وصممت على ذلك.

أراد المختار أن يردّ عليها، لكنه سمع صوت علي بك يناديه:

. دعهما تفعلان ما قرَّرتا عليه، وتعال ألقِ النظرة الأخيرة على أم أحمد، فإني أراها قد فارقت الدنيا.

نظر أبو عدنان إلى وجه أم أحمد. كان ساكناً شاحباً، لكن شفتيها اليابستين كانتا تبتسمان.

# (19)

غصّ الجامع الكبير بالمصلّين، وجلس العشرات على بابه الخارجي، وقد مدّوا بُسُطاً وحصراناً، ووقف آخرون للاستماع إلى خطبة الشيخ محمد سعيد التي كرّسها عن الشهادة والشهداء، وأشاد فيها بأم المناضلات (شاكي)، وبالملثّمات والملثّمين الذين يناضلون في الخفاء، فيوقعون أفدح الخسائر بالقوات الفرنسية، وطالب الشباب والشيوخ بواجبهم المقدس لتحرير أرضهم من المحتل الغاصب، وما إن انتهت صلاة الجمعة، حتَّى كان عدد من الفتية يوزّعون على المصلين صحيفة الفرات التي أنشأها المناضل أحمد المصطفى ورأس تحريرها المناضل الرحبي، وقد حوت الصحيفة على الكثير من المقالات التحريضية والقصائد المؤججة للمشاعر. ولعل أبرزها قصيدة (بني قومي) للشاعر الشاب ناجي.

التقت جموع المصلين مع جماعات من مساجد أخرى، وساروا جنباً إلى جنب بتظاهرة كبيرة لم تشهد دير الزور مثلها منذ زمن طويل، واتجهت نحو مقر الحاكم الفرنسي تهتف بسقوط فرنسا، وتطالب الفرنسيين بالرحيل عن سورية.

كان الحاكم الفرنسي ينظر من نافذة غرفته بالطابق الثاني إلى تظاهرة أهل العمائم واللحى، فلم يأمر بتفريقها بالقوة، بل أمر بتفريغ كل مخزون الخمر على رؤوسهم، فتفرّقت المظاهرة واللعنات تُصبّ من كل اتجاه على جاكو الفاسق، وزمرته السكارى...

فوجئ الثوار في مساء اليوم نفسه باعتقال الشيخ محمد سعيد، وصاحب جريدة الفرات ورئيس تحريرها والشاعر ناجي، وصدور أمر تسريح الرحبي من التعليم، فازداد غضب الجماهير، وعبؤوا أنفسهم ليوم حاسم، وخاصة أن إخوتهم في العراق قد هبّوا بثورة عارمة ضد الإنكليز يقودها رشيد عالي.

اجتمع الثوار في مضافة علي بك يتداولون حديث الثورة في دير الزور والعراق. قال علي بك:

. لا فرق لدينا بين سورية والعراق. الأرض واحدة والشعب واحد واللغة واحدة والدين واحد والتاريخ واحد، وعلينا نصرة إخواننا، وأعرف مسبقاً أنها مهمة ثقيلة تقع على عاتق الشباب، لكنه الوطن بحاجة إلى سواعدهم وتضحياتهم.

وقف الأستاذ جلال قائلاً:

. أعرف أن الثمن الذي يجب أن ندفعه غالٍ، لكنه الواجب يا إخوتي، فلا حياة مع الظلم أبداً، علينا أن نذيق الإنكليز الذين يعيثون فساداً بالعراق ألواناً من العذاب، كما نذيقه للفرنسيين هنا... إلى النضال يا إخوتي.. إلى النضال.

وقف أبو ياسين شامخاً، وقال:

. والله إنني أكرر ما قاله غاندي يوماً:

"لستُ آسِفاً على شيء، إلا لأنني لا أملك إلا حياة واحدة أهبها لوطني".

ليتني أيها الأخوة أملك أكثر من حياة، لبذلتها والله طوعاً في سبيل الواجب والتحرير.

قال الأستاذ جلال:

. يا إخوتي من يرغب بالتطوع للالتحاق بثورة رشيد في العراق فليأتِ غداً بعد صلاة العصر إلى النادي الثقافي كي أسجله، وأعطيه التعليمات اللازمة.

قال علي بك:

. علينا من الصباح الباكر الاستمرار بالتظاهر، حتَّى يتم الإفراج عن المعتقلين، ويعود المسرّحون إلى أعمالهم، والآن أرجو منكم أن تتفرّقوا اثنين اثنين وبفاصل زمني حتَّى لا تثيروا الريبة.

أمسك ياسين بيد سلطان، وخرجا من المضافة...

لم تكن الدماء الأرمنية وحدها هي التي جمعت بينهما. لقد التقيا على صعيد الفكر والنضال والاتجاه والرأي أيضاً. فكرهما ينفي الظلم ويحارب الاستبداد، ويؤمن بالحرية والعدالة، وكانت آراؤهما مطابقة لآراء أستاذهما تحسين بك، وكان اتّجاههما ماركسياً. قرأا كتب كارل ماركس وأنجلز، وكانا متفوّقين في دراستهما دائماً، وفي كل عام دراسي كان ياسين الأول وسلطان الثاني ترتيباً.

قال سلطان لياسين:

. أخبرني عن أمّ المناضلات جدتك؟ كيف هي الآن؟

. جدتي ليست بخير، فمنذ أن تفتّت عظم ساقها، ولم ينجح الطبيب في جبرها تماماً، وهي تتّكئ على عصا عندما تسير، وتتألم كثيراً. لكنها كانت تقول لأمي: إن ياسين سيكون له شأن كبير، فلا تهمليه أبداً. كانت تحثّني على الدراسة أولاً، وعلى

النضال ثانياً، وتسهر معي أثناء دراستي، فأصرّح لها بأفكاري ومبادئي، فتهزّ رأسها موافقة، وتربّت على كتفي.

. أم المناضلات عظيمة، وسيكون حفيدها من أعظم المفكّرين إن شاء الله. أنا أشاركها الرأي دون مجاملة.

. أخي سلطان، المستقبل كله بيد الله، وعلينا أن نعمل بكل ما أوتينا من قوة، وأن نصبر على الشدائد، ونحكّم عقلنا قبل عواطفنا، لنستطيع أن نرتقي. الوطن بحاجة إلى العِلم والمعرفة قبل العواطف والأحاسيس.

. صدقت يا أخي... فأنا معك في كل صغيرة وكبيرة.

. ما رأيك في ثورة رشيد؟

. رائعة إن كُتب لها النصر.

. وهل تعتقد أنها ستنتصر؟

. لا أعتقد. لأنَّ الإنكليز سيحبطونها بقسوة، لأنها تعني طردهم من العراق، وهذا الأمر لا يريدونه على الإطلاق.

. هل ستلتحق مع الشباب المتطوع؟

. سأرافقك غداً إلى النادي الثقافي، ونسجّل معاً دون تردد.

مدينة دير الزور تغلي غضباً وهياجاً، والريف يمور... الثورة بركان، والإيمان طوفان... المآذن تصدح، والنواقيس تقرع... والكل يناجي الإله أن ينصر الحق ويقتص من الظالم.

قال أبو ياسين لعلي بك:

. سمعت من أم المناضلات مقولة ذُهلت لها.

. ما هي؟

. "ومثلما تهتز أوراق غرسة الشّوح بفعل تيارات الريح العنيفة وتسقط، وتخضع، كذلك أراد الشر قطع فروع شجرة حياتي المنتصبة عالياً".

. كلام جميل، ومعناه عميق... إنها يا أخي تتذكر مأساة قومها.

. لكنها كانت تردّد هذا القول وهي تمسك بساقها وتبكي.

. الشر واحدٌ يا أبا ياسين، لكن لبوسه يتجدد في كل حين والآن هيا بنا، فالقائد فوزي في بيتي. في ضيافة ولدي راغب. لنذهب إليه على جناح السرعة.

. ألا نودّع المتطوعين إلى العراق؟

. أوكلت المهمة إلى الشيخ محمد سعيد، والأستاذ جلال والأستاذ ثابت.

. ألا نأخذ المختار معنا؟

. لقد سبقنا... هيا.

ما إن وصل علي بك إلى أول حارته حتَّى سمع أصوات الزغاريد تنطلق من بيته فأسرع يحث الخطى إليه ليجد ابنته شفيقة تقف على سطح البيت مطلقة تلك الزغاريد بأعلى صوتها، وعلى باب البيت كان ثمَّة هرج ومرج. نزلت شفيقة من السطح مسرعة وتلقّت والدها على الباب وقالت قبل أن يسأل:

. لقد أمرني أخي راغب أن أزغرد من على سطح البيت فرحاً بقدوم القائد فوزي وتحدياً للفرنسيين.

. بوركت يا بنتي، وبورك راغب فيما أمر. ولكننا نخشى على ضيفنا من الفرنسيين ومكرهم.

. لا تخش شيئاً يا والدي، فراغب عاقل ويعي ما يفعل.

كان لقاءً حاراً مع القائد فوزي الذي عرفت فرنسا صولاته وجولاته، وكانت تبحث عنه، تريده حيّاً أو ميتاً، مقابل جوائز سخية. تأمَّله علي بك طويلاً فابتسم قائلاً:

. أمَّا خشيتَ على نفسك؟

. لو كنتُ أخشى على نفسي ما قاتلت فرنسا يا أخي.

. لكنني أراك مهموماً؟!

. أحببتُ أن أسلّم عليك قبل أن أتوجّه إلى العشارة والمصلخة.

. ألا تمكث معنا في المدينة؟

. لا... إخواني هناك بحاجة ماسّة إلي... وعدتهم بالمجيء، وعندما أنتهي من هناك، سآتي إليك، وسأقابل الملثّمين الذين ضربوا أروع الأمثلة في البطولة والفداء.

ابتسم علي بك، فاستغرب فوزي، وقال:

. هل أخطأت في أمر؟

. لو كنت تعلم من هم لابتسمت مثلي!

. من هم أرجوك.

. إنّهن نساء عاهدن الله، ونذرن أنفسهن للشهادة.

. عظيم... عظيم... وهذا يسرني كثيراً، والله لقد تفوقتم علينا، وحتى على فرنسا وإنكلترا.

وقف القائد فوزي ليودع إخوانه، فقال له علي بك:

. لا يمكن أن ترحل الآن، فالقوات الفرنسية منتشرة في أحياء المدينة بكثافة عالية.

. لا تخف. القوات الفرنسية منشغلة بالمتطوعين.

لقد راقبت الموقف عن كثب.

. من سيرافقك في سفرك؟

. ولدك الأستاذ راغب إن وافقت.

. ونِعم الرجل الصلب راغب. لكنني أخاف عليكما إن ذهبتما.

. لا تخف. لن يعرفنا أحد. لقد أصبحت ملك التخفّي.

. رافقتكما السلامة.

في الوقت الذي رحل فيه القائد فوزي كانت حافلات المناضلين ترفع العلم العربي، وتطلق الهتافات، والنساء يزغردن تارة، ويبكين تارة أخرى، أمَّا الرجال فقد تجمهروا، وتظاهروا، وأطلقوا هتافات في حب الوطن وسقوط فرنسا وإنكلترا.

ما إن حل المساء، حتَّى كان المناضلون يتوافدون على مضافة علي بك.

الوجوه قلقة، والعيون تدور في محاجرها بحيرة، والأفواه فاغرة تتشهّى التهام الحقائق الخفية.. الأيام سكرى، والشهور حبلى بالأحداث...

كان علي بك قلقاً من تواتر الأخبار وتعاظم الأحداث... الريف يحقق نصراً تلو نصر، والمدينة مزهوّة مزدانة بشهدائها وتضحيات أبنائها البررة... اقترب علي بك من الأستاذ جلال، قائلاً:

. ضع المناضلين بصورة الأحداث التي جرت في المصلخة كونك كنت هناك.

قال جلال بفخر واعتزاز:

. لقد أوصى الشيخ كسّار ولده الصغير قائلاً: يا بني، عندما يصل القائد الفرنسي إلى هنا، ويقول لك (بونجور)، قل له: بونجور وتسقط فرنسا. وهذا ما حدث فعلاً.

احتضن الشيخ كسّار القائد فوزي والقائد العراقي فتيخان أبا ريشة اللذين بحثت القوات الفرنسية عنهما طويلاً دون جدوى، وصادف وجود الشيوخ كسّار وفارس وعبود في البوكمال ليحذّروا القائد الفرنسي فيها من التمادي في جباية الضرائب المرهقة، فوعدهم خيراً، لكن لم ينتظروا كما وعدوا، فتوجّهت قوة إلى المصلخة، وتقدّم أحد جنودها من فتاة تحمل على رأسها خبزاً، وعندما رأى في أذنيها قرطين ذهبيين سال لعابه، وهجم عليها، وما كان من الفتاة إلا أن ألقت الخبز، وهربت صائحة، وكان أخوها غير بعيد عنها، فصوّب بندقيته نحو الفرنسي وأرداه قتيلاً، وكانت هذه الحادثة هي الشرارة الأولى التي أحرقت الهشيم.

تمركزت القوات الفرنسية بعد هذا الحادث وأحاطت بمنازل الشيوخ الثلاثة ليشعروهم بأنهم رهائن، فوقفت السيدة (عيّوف) زوجة الشيخ كسّار، ووضعت أكياس الطحين أمام المنزل كمتراس يقيهم من رصاص الفرنسيين، وخبّأت الأطفال في الزوايا، وصاحت صيحة /الفدعان/ (الروم يا هلي) كونها فدعانية، فتجمّع الرجال حولها، وقالت لهم مستهزئة: (يحمدونكم، وما شفت أفعالكم). فقالوا لها: لبيك يا أختاه. ونشبت المعركة ضارية تحصد أعناق الغادرين. حصد الثوار أعناق ستة وسبعين عسكرياً فرنسياً، وقتلوا قائد الحملة (الليوتنان أسبران)، وجرح مساعده (الكابتن غوركي) واعتقلوا عدداً من الأسرى، وكانت خسائر الثوار خمسة عشر ثائراً وعدداً من الجرحى. استسلم الفرنسيون في هذه المعركة، وقام الثوار بجمع جثث القتلى من الفرنسيين وألقوها في نهر الفرات.

احتشد بعد هذه المعركة عدد كبير من الرجال من قرى الدميم والقرى المجاورة، وتوجّهوا إلى البوكمال، وكان قد سبقهم أحد الثوار ليخبر فارساً وكسّاراً ومن معهما بما جرى كي يتواروا عن أعين الفرنسيين إلى حين، لكنه لم يوفّق إذ فوجئ باعتقال الشيخين.

عندما علم القائد الفرنسي بما جرى للقوة العسكرية، وهاله ما رأى بمنظاره من حشد جماهيري في موقع مقبرة (أبي سيباط) أسرع إلى السجن، وأخرج الشيخ فارساً طالباً منه التوجّه إلى الجموع المحتشدة وإرجاعهم إلى قراهم، فرفض الشيخ فارس الخروج من السجن إلا برفقة كسّار، فأقسم له الضابط بشرف فرنسا بأن كسّاراً سيلحق به بعد أن يقنع المحتشدين بالتراجع، وحرصاً على حياة الشيخ كسّار رضي الشيخ فارس، وتوجه إلى الجماهير الغاضبة، قائلاً لهم: إن أردتم أن تحافظوا على حياة الشيخ كسار وسلامته ارجعوا، فقد أقسم الضابط الفرنسي بشرف فرنسا بأن كسّاراً سيلحق به بعد أن تتراجعوا، ورضوخاً لطلب الشيخ فارس تراجع الحشد إلى

مسافة غير بعيدة. حينذاك طلب الضابط الفرنسي من حامية دير الزور إرسال قوة داعمة لتأديب الثائرين، ووصلت القوة، والجموع ما تزال تنتظر على الطريق عودة الشيخ كسّار.

توقّفت القوة الداعمة أمام الجماهير المحتشدة، وخرج من بينها جنديان عرفتهما الحشود، وأرادت الفتك بهما، لولا أن قال لهم أحدهم: لا تخافوا يا إخوتي إن نشبت الحرب لن نكون والله إلا معكم.

أمَّا ضابط الاستخبارات الفرنسي فقد كان يراقب بقلق تحرّك القوّة الداعمة، وعندما رآها متوجّهة إلى البوكمال، توجه إلى سجن كسّار، فأخرج مسدسه وصوّبه نحو رأس كسّار، لكن المسدس لم يستجب له، فألقاه على الأرض بعصبية، وتناول بندقية الحارس وصوّبها نحو كسّار فأرداه قتيلاً. حدث هذا يا إخوتي عصر يوم السابع عشر من أيلول 1941، وسرعان ما نقل ضابط الاستخبارات الفرنسي جثّة كسّار ووضعها على كرسي سيارته، ووضع على رأسه غطاءه وعقاله ليوهم من يراه بأنه حي، ورحل به عن طريق البادية إلى دير الزور.

قال علي بك:

. رحمة الله على كسّار... أجل سلّموا الجثّة إلى تكية الشيخ أحمد الراوي، ودفنت بدير الزور.

. رحمة الله عليه، وما تزال يا إخوتي الثورة تشمل الريف ومدينة البوكمال، وتصبح أكثر شراسة، وتسمع في كل مكان حداء الثوار:

**عقيدات وما بينا خيانة نهجم عل طوب وعل دانة**
**ما ليس يعضعض باركانه يزحف والدربيل مكسّر**
**راعي الطيّارة مبعوجي مكسور الخزّان، وحدّر**
**ربعي دوم يزيحون الشر**

. حمداً لله على سلامتك يا جلال، ولنسمع الآن أخبار الثورة في المدينة من المختار أبي عدنان قائد العمليات فيها.

تنحنح أبو عدنان، وقال:

. أوّلاً، أريد أن أطمئنكم على صحة القائد فوزي، فهي بخير، ويسهر على راحته الأستاذ راغب. ثانياً، الملثّمون قد تضاعف عددهم حتَّى أصبحوا يتجاوزون مئة الملثّم. ضربوا أروع الأمثلة في البطولة والفداء. أمَّا الفرنسيون فخسائرهم ثلاثون جندياً وضابطاً، ومن السنغاليين ستون. أمَّا خسائرنا فقد استشهد اثنا عشر مناضلاً ومناضلة، تمَّ دفنهم في مقبرة الشهداء، وأبرز الشهداء:

(حميدة أخت أحمد الصباغ، وسلطانة بنت أبي سلطان، وأبو سلطان الجابي، وآرتين وزوجته شاميران) رحمة الله عليهم جميعاً.

. يا إخوتي، ثورة دير الزور أقلقت فرنسا، وقد وردني خبر بأن الجنرال ديغول سيأتي إلى هنا ليبشّر الشعب بقرب الجلاء.

قابل الديريون كل الأخبار التي ترِدهم يومياً بكل استخفاف، فقد تعودوا على خداع المستعمر. هم يريدون إطفاء نار الثورة المتأججة، ولم يفلحوا، ولن يفلحوا، إذ كانت تشتعل بضراوة، تحرق الأخضر واليابس.

قُتل من الفرنسيين والسنغاليين المئات، وأحرقت سياراتهم وناقلات جندهم، ورجموا حافلة صغيرة عابرة كانت تقلّ قائد قوات شرقي السويس الجنرال البريطاني سيريس وكادوا يفتكون به لولا سرعة هروبه إلى العراق.

وجاء ديغول...

استقبله المحافظ توفيق، والحاكم العسكري، وقائد الاستخبارات، وعدد محدود من الضباط والوجهاء، ووزّعت القوات الفرنسية مناشير تبشر أبناء الفرات بقرب موعد الجلاء...

قال علي بك لجلساء مضافته:

. علينا أن نوقف عملياتنا فترة محدودة حتَّى تتكشّف الأمور.

قال أبو ياسين:

. لم يعترض الفرنسيون قافلة المتطوعين العائدين من العراق بعد إخفاق الثورة فيها.

. اطمأن قلبك على ياسين؟

. الحمد لله. عاد ياسين سليماً إلا من شظية أصابت قدمه، وهو الآن معافى.

. لماذا حزنت على ذهابه يا أبا ياسين؟

. والله يا أبا راغب لا لأنَّه ذهب ليقاتل، وإنما لأنَّه رحل دون أن يودّعني.

قال المختار:

. أرجو يا أبا راغب أن نمنح الفرنسيين وقتاً كافياً من أجل الجلاء، وليكن ستة أشهر على الأقل، وهي مناسبة لنعيد ترتيب بيتنا النضالي.

ضحك أبو ياسين:

. أنت كريم عليهم يا مختار. ثلاثة أشهر كافية.

قال الأستاذ جلال:

. يا إخوتي، لن يكون ثمن الجلاء إلا دماء الشهداء.

وسترون.

مضت الشهور ثقيلة على المناضلين، وجاء إلى دير الزور محافظ جديد داغستاني الأصل، وكان طيّباً مع الشعب، لكنه مسالم إلى أبعد الحدود. طلب من علي بك، ومن القادة الوطنيين ألا يشهروا السلاح في وجه الفرنسيين بعد اليوم، مقابل أن يضمن رحيلهم بعد أشهر معدودات.

صاح علي بك:

. أشهراً أخرى يا خالد بك؟ والله إن هدأتُ أنا، فلن يهدأ الشعب. الشعب أمانة في عنقك، ومطلبهم مطلب حق، فالله الله بهم.

خرج علي بك من دار المحافظة غاضباً، واعتكف في بيته.

جاء المناضلون، وحملوه إلى المضافة، وهم يهتفون:

. كلّنا للوطن... كلّنا للجهاد... كلّنا للاستشهاد.

قال علي بك:

. يا إخوتي، صدق الأستاذ جلال عندما قال أن الجلاء لن يكون ثمنه إلا دماء الشهداء... لابدَّ من إجبار الفرنسيين على الرحيل مهما كانت التضحيات، لنثبت لهم أننا شعب حي لا يأبه للموت، ولنبرهن لهم أننا لن ندعه ينام إلا على فراش من قتاد... أوصلوا الليل بالنهار واعملوا كامل طاقتكم...

صرخ أبو ياسين بأعلى صوت:

. إلى النضال يا إخوتي... إلى النضال.

# (20)

ارتدى المناضلون جلابيب الحرب، وتلثّموا، وتوزّعوا خلايا في كل حي وشارع.

أقسموا على الاستشهاد وتحرير الأرض من الغاصبين، فأخذوا يفتكون بالفرنسيين وأعوانهم، ولم يسلم (شوتيل) الكولونيل الفرنسي من غضبتهم، فأحرقوا سيارته، وحاصروا بيته عند الجسر العتيق، وكان ثمَّة شاعر شعبي يرافق المناضلين، ويحدو بهم:

**شوف ثورة أهل الدير حرقوا سيارة الكلونير**
**وصاحوا اذبحوا هالشوفير وخلّوا روحه اليوم تطلع**

*

**ولمّن هجموا عالجسر العتيق وصفّى شوتيل بأكبر ضيق**
**اشتغل التصفير والتصفيق وشوتيل مجحر، ما يطلع**

*

كانت ثورة شاملة شاركت فيها كل شرائح المجتمع... ثورة قادها المثقفون الثوريون شباباً وشيوخاً، رجالاً ونساءً.

فعلت الذخائر والمتفجرات التي صنعها أبو ياسين وعائلته فِعلها الكبير، إذ هدمت بيوت الفرنسيين وثكناتهم، وحافلاتهم ومدرعاتهم، وعندما لاذوا بالفرار اصطادتهم فخاخ أبي صادق، والقناصة المدربون، حتَّى جنّ جنونهم، وأخذوا يمطرون المدينة وسكانها الآمنين بوابل من رصاص غدرهم... قصفوا الدير براً وجواً بأحدث القذائف وأشدّها فتكاً، فتهاوت بيوت الفقراء على رؤوس أصحابها... قتلوا الأطفال والشيوخ والنساء، وكانت مجزرة لن تمحى من ذاكرة الأجيال أبداً.

تدارس المناضلون الموقف، فقرروا إعلان هدنة كي يستطيعوا جمع شهدائهم ودفنهم، وترتيب خلاياهم من جديد، فرشّحوا الشاعر الفراتي للتفاوض كونه يجيد اللغة الفرنسية بطلاقة.

قبِلَ الفرنسيون التفاوض ووقف إطلاق النار ثلاثة أيام. كان من بين الشهداء (أبو ياسين وزوجته ترفندا، والمختار أبو عدنان وابنته سعدى، وأناهيت زوجة آغوب، وأستخيك زوجة ديكران، ولوسين زوجة طارق، والقس قاطريان، وروزيت وآرشو وهوري وتامار).

بكاهم علي بك طويلاً، وكذلك فعل الثوار، وأقسموا على الثأر لهم مهما عظمت التضحيات وغلت.

قال علي بك:

. رأيتم كيف كان المصاب جللاً... هذا يا إخوتي ثمن الحرية والكرامة، فلا حرية دون استشهاد:

**وللحرية الحمراء بابٌ بكل يدٍ مضرّجةٍ يُدقُّ**

ما حدث في دير الزور حدث في بقية المحافظات... إنها إرادة الله، ولا رادّ لقضائه.

يا إخوتي، وردّني قبل قليل أن الفرنسيين قد أعدّوا خطّة لنسف الجسر المعلّق قبل رحيلهم، ونحتاج إلى ثلاثة فدائيين استشهاديين لإنقاذ الجسر من الدمار، فمن يجد في نفسه الكفاية والمقدرة والمعرفة بقطع الأسلاك وإبطال مفعول المتفجّرات التي هم الآن بصدد ربطها فليقف.

وقف شاب في الثلاثين من عمره، عرفه علي بك وكل الثائرين لِمَا له من أيادٍ بيضاء على الثورة، فصفق علي بك قائلاً:

. أنت لها والله يا أبا رمزي يا أخا الخرسا.

ثمَّ وقف شابان شقيقان هما عمر وحمود، فقال لهما علي بك.

. أنتما ساعداه الأيمن والأيسر.

أطلبُ من الجميع أخذ الحيطة والحذر، وأياديكم على الزناد دائماً، فالانفجار قد يقع بعد الأيام الثلاثة حتماً إن لم يرحلوا عن أرضنا، وأنا سأواصل الاتصالات مع شيوخ العشائر والوجهاء والوطنيين، وسأوافيكم بكل ما هو جديد.

اذهبوا يا إخوتي إلى بيوتكم، ولا تنسوا تنفيذ مهامكم النضالية.

رحل الجميع، وبقي علي بك وحيداً يفكّر، وكلّما تذكر قافلة الشهداء الأخيرة يعتصر رأسه، وتقطر من عينيه الدموع:

. رباه! أيرحلون دفعة واحدة وأبقى أنا وحيداً؟! لِمَ لم تأخذني مع قافلتهم؟ يا رب ساعدني...

دخل المضافة ستة طلاب من تجهيز الفرات، قدّموا أنفسهم إلى علي بك (إسماعيل ومصلح وعلاء وفوزي وصالح وسليمان):

. أهلاً بكم جميعاً... تفضلوا.

. أهلاً بك يا عمّاه. لا نريد أن نأخذ وقتاً منك. فقد أردنا أن نقول لك بأننا أعضاء جمعية الطلاب السرية التي لم يعرفها أحدٌ غيرك بعدُ.

جئنا إليك لتحمّلنا أثقالنا، لأننا لا نريد أن نتصرّف بغير مشورتك.

. اسمع يا ولدي مصلح... الآن جاء دوركم بعد أن استشهد رفاقي، وعبّدوا لكم طريق الحرية والكرامة... العدو الغاصب ما زال يحتل أرضنا بالرغم من أن فترة إقامته كما أراها ليست طويلة، لكنه يجب أن يخرج بالقوة، لا نريد مِنّةً من أحد. عليكم أن تحرّضوا الشعب، والطلبة في مقدّمتهم، وتلتفّوا حول المناضلين أمثال جلال وسعيد وثابت وعبد الوهاب وراغب وياسين وسلطان وغيرهم، وحقّقوا الشيء الذي لم نستطع نحن تحقيقه.

. يا عمّاه... أنت حققت ورفاقك كل شيء، ونحن سنكمل المشوار. ثق بي وبرفاقي.

دخل ياسين وسلطان المضافة وهما يرغيان ويزبدان، فلما رأيا عليّاً وضيوفه صمتا. نظر إليهما علي بك باستغراب، وقال بصوتٍ خفيض:

. ماذا جرى لكما؟ تحدّثا... لا أحد غريب هنا.

قال ياسين:

. الانتفاضة في الميادين والقورية تشهد تحوّلاً خطيراً.

. ماذا جرى؟

. استطاع المناضلون في الميادين نصب كمين لحافلة تقلّ عدداً كبيراً من الضباط الفرنسيين قادمة من البوكمال، فدمّروها بمن فيها، وقتلوا أيضاً أربعة عشر جندياً فرنسياً كانوا قد جاؤوا لحمايتها، والميادين الآن محاصرة. هبّ أهل القورية لفكّ الحصار عنها، فالتحموا مع القوات الفرنسية وقتلوا أعداداً كبيرة من جنودهم

وضباطهم، والجو متوّتر الآن، ونريد منك إجراءً سريعاً لنجدة أهلنا في الميادين، خاصّة وأن قوة كبيرة اتجهت الآن إلى موقع الأحداث.

صمت علي بك طويلاً:

. سيكون ردّنا في دير الزور مزلزلاً إن شاء الله. اذهبا وبلّغا كل المناضلين للتحرّك فوراً، وأنت يا ولدي مصلح بلّغ تحياتي إلى جماعتكم، وقل لهم على لساني إن التحرّك الآن ضروري ولا يحتمل التأجيل.

عاشت دير الزور مدينة وريفاً وبلداناً أياماً وشهوراً قاسية، فالفرنسيون الذين هالهم حجم خسائرهم البشرية ومعداتهم الحربية أصبحوا يضربون في كلّ اتجاه كالمجانين، لم يفرّقوا بين طفل ورجل أو شيخ أو امرأة... لكن الخوف والهلع قد سيطرا عليهم. اعتقلوا وجهاء المدينة وحمَّلوهم مسؤولية تلك الأحداث، ولم يفرجوا عنهم إلا بعد تعهدهم بإنهاء الثورة وتسليم قادتها، وكأن الوجهاء بأياديهم الحل والربط...

اجتمع الوجهاء مع علي بك وحدّثوه بما جرى لهم من إهانة وإذلال وطالبوه بتصعيد الثورة مهما غلت التضحيات.

دخل المضافة الرجال الثلاثة الذين أوكلت إليهم مهمّة إبطال مفعول المتفجرات التي نوى الفرنسيون استخدامها لتدمير الجسر المعلّق، فوقف علي بك، وعانقهم، متسائلاً:

. ماذا فعلتم؟

تقدّم إليه أبو رمزي قائلاً:

. لقد وفّقني الله في اللحظة الأخيرة على قطع الأسلاك، وإبطال مفعول المتفجرات. الجسر في أمان يا علي بك.

عانق علي بك أبا رمزي قائلاً:

. بوركت سواعدكم أيها المناضلون.

قال عمر:

. والله يا أبا راغب، لم يَدَعنا أبو رمزي أنا وأخي أن نساعده، كان يقول لنا: أنتما شابان في مقتبل العمر، وأخاف عليكما، أمَّا أنا فإن استشهدت، فستأخذان بثأري حتماً، وذهب وحيداً، ووفّقه الله في إنجاز المهمة الصعبة.

قال علي بك:

. بطل يا أبا رمزي، بطل... سيذكرك التاريخ وأبناء بلدك، وقد يقيمون لك تمثالاً على باب الجسر، كونك المنقذ الوحيد له.

. يا أبا راغب، والله لا أريد تمثالاً ولا شكراً ولا مكافأة. ما عملته هو واجبي لا أكثر ولا أقل، وقد تمنيت أن أستشهد فألاقي وجه ربي وهو راضٍ عنّي.

النار تحرق الهشيم، خرج الأطفال يحملون أعلام سورية عالياً، ويهتفون رغم منع التجول وإطلاق الرصاص، أحبّ الشعب الاستشهاد، ومضوا في طريقه غير هيّابين، لا أحد يمنعهم من التضحية، ولا شيء يغلوا في أعينهم سوى حب الوطن والدفاع عنه...

الرَّقة مضرب المثل، والحسكة أسطورة منذ أن أوكلت المهمة النضالية فيها إلى محمد بك، ولم يُجدِ قصف عامودا ورأس العين، فقبائل طيّ وشمّر والجوّالة وغيرها قامت بواجبها الوطني خير قيام، وكان الشيوخ جميل وادهام وسعيد وحمادي من جماعة الحزب الوطني الذي تحوّل إلى جماعة القمصان الحديدية من خيرة القادة الكبار الذي سجّلوا ملاحم نضالية خالدة، كما لم تفلح فرنسا بمحاولة فصل الجزيرة عن الفرات بسبب وعي القادة المناضلين.

قال علي بك للوطنيين في مضافته:

. الحسكة أصبحت بيد الوطنيين، والرَّقة بفضل النقيب أديب أصبحت شبه محرّرة، والبوكمال رفعت العَلَم العربي السوري على مبانيها الحكومية، ونحن على الطريق إن شاء الله. كل ما أرجوه أن ننفّذ المهمة النضالية بدقة وأمانة، فيوم الخلاص أراه والله قريباً.

وحدث ما كان متوقّعاً. في ليلة الثامن والعشرين من أيار 1945 انفجرت بدار الاستخبارات الفرنسية أول قنبلة ألقاها المناضل حسن، وقطعت مجموعته كافة طرقات المدينة بالحجارة، كما قطعوا أسلاك الهاتف، فانقطع الاتصال بين القوات الفرنسية، واجتمعت رجالات المدينة وزعماء العشائر بدار المحافظ غالب، وأخذوا يتداولون الوسائل الكفيلة بالقضاء على القوات الفرنسية، والمظاهرات تعمّ الشوارع، واشتدّت المعركة تسع ساعات دون انقطاع، وانسحب العدو الفرنسي إلى ثكناته خارج المدينة، وما هي إلا لحظات حتَّى رفرفت الأعلام السورية فوق المباني الحكومية والبيوت وعلى المحال التجارية، وهاجمت مجموعة سلطان وياسين الشرطة العسكرية، وألقوا القبض على أفراد الشرطة كافة الذين لم يمهلهم المناضلون، فقتلوهم جميعاً، وألقوا بأجسادهم من الشرفة معلنين بذلك تطهير الجيوب كافة.

لم يقف الفرنسيون مكتوفي الأيدي لِما حدث، فقذفوا المدينة بالمدافع، ونسفت طائراتهم البيوت والمباني الحكومية، ولولا أن قام أحد أبناء المدينة الذي يعمل في المطار بتعبئة الطائرات بالماء بدلاً من البنزين لاحترقت دير الزور كلّها.

قال علي بك مفتخراً:

. إنه البطل أخو نصرة. لقد نفّذ مهمته خير تنفيذ.

وقال المحافظ:

. علينا يا إخوتي أن نطلب هدنة لدفن شهدائنا ومداواة جرحانا.

أيّده المناضلون، ووافقت فرنسا على هذه الهدنة، وكان الشاعر الفراتي هو المفاوض نيابة عن الثوار.

قال علي بك:

. لقد وجّهنا نداءً إلى الضباط وصف الضباط والأفراد الديريين كافة الذين يخدمون في الجيش الفرنسي للالتحاق بصفوف المقاومة.

قال المحافظ:

. لقد التحق بنا عدد منهم وهم ذوو أهمية كبرى لانتزاع الاستقلال. لكن عصبة الأمم قررت إسناد الأمن إلى الجيش الإنكليزي لفترة محدودة.

قال ياسين:

. لن تكون إقامتها عندنا إلا كإقامة شقيقتها فرنسا.

قدِمت إلى المدينة بتاريخ 6 حزيران 1945 طلائع الجيش الإنكليزي لاستلام الأمن، كما قَدِمت بعدها لجنة تحقيق إنكليزية طافت على الأماكن والبيوت المهدّمة، فأحصت تسعة وثمانين شهيداً ومئتي جريح وخمسة وثلاثين بيتاً مهدّماً.

مرّت الأيام والشهور، وتعاقبت الفصول. رحل الصيف والخريف وحلّ الشتاء مرعداً ومزمجراً، وكان الفرنسيون يخلون المواقع، ويطوون أعلامهم، لترفرف أعلام النصر خفّاقة، ويتسلّم الوطنيون أمور بلادهم في صبيحة السابع عشر من نيسان عام ستة وأربعين وتسعمائة وألف.

# (21)

أقيم سرادق كبير أمام دار الحكومة، رصفت عليه من كل جانب الأعلام السورية، وجلس أئمة النضال فيه، يهنّئون أنفسهم والآخرين بعيد الجلاء.

قال ياسين:

. ماذا لو عاد الفرنسيون أو الإنكليز إلى أرضنا؟

قام كبير شيوخ العشائر، وقد رفع عصاه عالياً:

. إن عادوا عدنا...

(وكررها ثلاث مرات)، فصفّق له الحاضرون طويلاً.

شق صفوف المناضلين ملثّم، فالتهمته الأعين، واشرأبّت له الأعناق... كان يسير بتؤدة، وقد اتّكأ على بارودة فرنسية طويلة، وقبل أن يتحدث، نزع لثامه، وكشف عن وجهه، فشهق الحاضرون، وصاحوا بدهشة:

. أم المناضلات؟! كيف جاءت وهي لا تقوى على السير؟!

قالت بهدوء واتّزان:

. يا أهلي وإخوتي، يا أبناء دير الزور المناضلة، يا من أنقذتم الشعب الأرمني من الموت، ووقفتم إلى جانبه في كل محنة تعرّض لها، يا من احتضنتم أطفالنا ورجالنا ونساءنا، يا من منحتمونا أسماءكم وشرف الانتماء إلى عائلاتكم الكريمة... كيف لا أحضر في مثل هذا اليوم الخالد؟ والله لكَم تمنّيت أن أكون شهيدة لألحق ابنتي إلى دار الحق والرضوان... لكنها مشيئة الله، والحمد لله على كل حال. لم نبخل والله بأي عطاء، وكنا صادقين بالقول والفعل. وصيّتي أن لا تنسوا من بقي حياً من أبناء جلدتي، وأن تهيّئوا لهم سبل العودة إلى بلادهم إن أرادوا... سيذكركم الأرمن طويلاً طويلاً، فنحن شعب لا يضيع الخير فينا أبداً، ولا ينسى المعروف إطلاقاً.

صفق لها الحاضرون طويلاً، وهتفوا باسمها كثيراً. تقدّم إليها علي بك والمحافظ وصافحاها، وأجلساها بينهما. دخل السرداق رجل في الثلاثين من عمره، تبدو عليه آثار النعمة والوسامة والجد. بيده حقيبة جلدية منفوخة.

تأمّل وجوه الحاضرين، وحيّا بلغة عربية تشوبها لكنة أرمنية، وجلس هادئاً صامتاً.

همس علي بك في أذن الشيخ محمد سعيد قائلاً:

. يبدو أنه أرمني. هل سبق أن رأيته؟

. لا والله. لكن انتظرني.

وقف الشيخ محمد سعيد، ثمَّ خطا عدّة خطوات، حتَّى وقف أمامه، فوقف الرجل، وحاول تقبيل يد الشيخ، لكن الشيخ سحب يده بسرعة قائلاً:

. أستغفر الله العظيم... اجلس يا أخي، على الرحب والسعة. إن أردتَ دار أمان فقد وصلت، وإن كنتَ جائعاً أطعمناك، وإن كنتَ مَديناً، فسنعطيك ما تفي به دينك، وإن كنتَ مطلوباً أجرناك.

. أنا مَدين يا شيخ.

. اطلب وتمنَّ... وقل لنا من هو الدائن حتَّى نفي دينَك.

. أنا مَدين لكم.

. لنا؟! من أنت يا أخي؟ ليتك تعرّفني على شخصك.

حاول الرجل أن يجيب الشيخ، فتعثّر لسانه، ولم ينبس ببنت شفة، وأخذت دموعه تهطل بغزارة.

. هل أنت أجنبي؟

حرّك الرجل سبّابته بالنفي.

. عجباً! تفهم ما أقول، ولا تتكلم؟

أخرج الرجل من جيبه منديلاً قماشياً، وجفّف دموعه على عجل، ثمَّ فتح جيب حقيبته الجانبي، وأخرج وريقة صفراء قديمة، وقدّمها إلى الشيخ بكل احترام.

عقلت الدهشة لسان الشيخ، وهو ينظر مليّاً في الورقة المهترئة، وزادت دهشته عندما رأى توقيعه عليها، فصاح مهللاً مكبّراً بأعلى صوت:

. الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر.

أسرع علي بك والمحافظ والأستاذ جلال والأستاذ ثابت إلى الشيخ وهو يكاد يبلّل الوريقة الصفراء بدموعه...

قال علي بك مستغرباً:

. ماذا أصابك يا شيخ؟ لقد أفزعتنا.

كانت الدموع تملأ عيني الشيخ، وهو يقرأ تلك الوريقة. أخرج الشيخ منديله، فجفّف دموعه، وقدّم الوريقة إلى علي بك الذي صاح بأعلى صوت عندما قرأها:

. الله أكبر... الله أكبر... الله أكبر.

وتعالى صياحه عندما رأى توقيعه أيضاً عليها.

. ما هذا يا شيخ؟

. إنها الحقيقة يا أبا راغب، التي لا تخفى وإن طُمست إلى حين.

. اسمعوا يا إخوتي... إن هذا الشاب هو /سورين/ ابن الشهيد أحمد الصباغ.

كانت الألسن تتساءل:

. كيف عرفوا ذلك؟ وما هذه الوريقة؟

قال علي بك:

. إن هذه الوريقة هي وثيقة زواج هاصميك بأحمد الصباغ.

قفزت شاكي من مكانها، واتّكأت على بندقيتها، وسارت تخب، حتّى وصلت سورين. تأمّلته جيداً، ثمَّ ما لبثت أن احتضنته.

حدّثته بالأرمنية، ففرح كثيراً، وتشبّث بها، وقال لها بأنه ابن هاصميك. عانقته، وأخذت تشم وجهه وجسده ولباسه، وتبكي بكاءً محرقاً، أثارت دهشة الواقفين جميعاً.

قال لها علي بك:

. حدّثيه بالأرمنية يا شاكي، وافهمي لنا أين تقيم أمه الآن.

تحدّث سورين لأم المناضلات حديثاً غريباً.

قالت شاكي:

. إنه يتذكر رحلة العذاب التي لاقاها مع أمّه وجدته وخالته. ويقول إنه كان يعيش مع أمه في أرمينيا بعد وفاة جدّته وخالته، ومنذ شهر نادته أمه وهي على فراش الموت، وأمرته أن يفتح حقيبتها الجلدية المودعة في صندوق ملابسها، ويُخرج منها هذه الوريقة.

قالت له الحقيقة كاملة، وطالبته بالسفر إلى دير الزور ورؤية أبيه وإخوته إن كان له إخوة، وأن يحمل إليهم المال اللازم لإسعادهم، وخوفاً من عدم تصديقه أعطته وثيقة زواجها كدليل على صحة ادّعائه.

لقد أذهلت الحقيقة وجوه الحاضرين، فهلّلوا وكبّروا، وحملوا سورين على الأكتاف، وصاحوا بأعلى صوت:

. سورين، ابن الشهيد أحمد الصباغ.

قال علي بك لشاكي:

. اسأليه... هل أمه حيّة أم ميتة؟

تحدّثت معه، ثمَّ قالت:

. لقد رحلت عن الدنيا بعد أن أوصته بالسفر إلى دير الزور، وأقسمت عليه بأن يرى أهله فيها ويساعدهم، ويعتذر عن عدم تحدّثه باللغة العربية رغم محاولات أمّه على تعلُّمها. يقول: استطعت أن أفهم العربية لكنني لا أتكلم بها كثيراً.

قال علي بك:

. لا يهم، سيتعلّمها آجلاً أو عاجلاً ما دام جذره هنا. وطلب علي بك من ياسين وسلطان أن يأخذاه إلى بيت أهله بعد أن يزوروا قبر أبيه في مقبرة الشهداء.

سار سورين برفقة ياسين وسلطان إلى مقبرة الشهداء، ووقفوا خاشعين أمام قبر الشهيد أحمد الصباغ. قرأ ياسين سورة الفاتحة جهراً، فرفع سلطان كفيه، وتمتمت شفتاه بأم الكتاب، فما كان من سورين إلا أن عمل مثلهما وأخذ يتمتم تمتمات لم يفهما معانيها، لكن عينيه هطلتا دموعاً مدرارة.

رجعوا إلى بيت أحمد الصباغ، فوجدوا أم المناضلات وعلي بك في استقبالهم.

قالت شاكي لسورين:

. إن أباك تزوج بعد رحيلكما إلى حلب، وله ولدان شابان هما /الحسن والحسين/ وهاهما هنا يعيشان مع جدتهما أم سامي.

أقبل الحسن والحسين على أخيهما، فعانقاه بحرارة، وطفرت دموعهما وهما يحتضنانه، وبكى الواقفون جميعاً أمام هذا المشهد المؤثر.

اقترب الحسن من أم المناضلات قائلاً:

. قولي لأخي أن يبقى معنا.

نقلت له هذا المطلب بالأرمنية، فأجاب، وقالت بتنهّد:

. لا يستطيع البقاء هنا طويلاً، فلديه شركة كبيرة للمقاولات تستوجب وجوده ومن ثمَّ لا يستطيع أن يترك أرمينيا وقبر أمه، ويقول لكما: خذا المال الذي أحمله

كله لكما، وإن أردتما السفر إلى أرمينيا فسأجلبكما معي بأقرب وقت لتساعداني، وتحملا عبء الشركة.

قال الحسن مخاطباً شاكي:

. قولي لأخي الكبير، نحن أيضاً لا نستطيع أن نترك بلدنا وقبر أبينا الشهيد، فإن رغب بالبقاء فهو أخونا الكبير الذي تجب علينا طاعته واحترامه وتقديره، وإن رفض فليذهب مصحوباً بالسلامة.

نقلت له شاكي ما قاله الحسن، فهزّ سورين رأسه، وأخرج من حقيبته حفنة كبيرة من الدولارات، نثرها تحت أقدام أخويه قائلاً لشاكي:

. قولي لهما بأنني سآتي إليهما من فترة لأخرى، ولن يريا مني إلا الخير، فأنا مضطر للسفر.

***انتهت الرواية***

***دير الزور - 2004/10/10م.***

## الكاتب في سطور

. محمد رشيد بن عبد الله الحمد الرويلي
. مواليد دير الزور 1947.
. إجازة في الآداب –قسم اللغة العربية 1972.
. عمل مدرساً لمادة اللغة العربية، ومديراً لكبرى ثانويات ومعاهد مدينة دير الزور ومديراً لتحرير صحيفة الفرات الأسبوعية، وموجهاً اختصاصياً لمادة اللغة العربية في دير الزور وصنعاء.
. رئيس فرع اتحاد الكتاب العرب بدير الزور منذ عام 1993 ولا يزال.

**صدر له:**

1. الرباط الواهي –مجموعة قصص –مطبعة الفرات بدير الزور –.1982
2. هدباء –مجموعة قصص – مطبعة الفيصل بدير الزور – 1984.
3. المعادة – مجموعة قصص – المطبعة السليمية بدير الزور – 1992.
4. ليل الظهيرة – مجموعة قصص – دار حسان عطوان للنشر بدمشق – 1996
5. الوصية – مجموعة قصص – اتحاد الكتاب العرب – .1998
6. الدليل السياحي لمحافظة دير الزور – دار الحمزاوي للطباعة والنشر بدمشق – 1998 .
7. دير الزور.. ماض عريق وحاضر مشرق (مشترك) مطبعة الجمهورية بدمشق –1998.
8. الحركة الثقافية في محافظة دير الزور خلال القرن العشرين – الجزء الأول – دار صائب للنشر بدير الزور –2003.
9. الخلوج: رواية –اتحاد الكتاب العرب –.2003
10. الحركتان المسرحية والفنية بدير الزور وهي الجزء الثاني من الحركة الثقافية –مطبعة دار التكوين بدمشق –2005.
11. سورين –رواية –اتحاد الكتاب العرب –2005.

له قيد الطبع:

1. الطريق إلى الحلوى –مجموعة قصص.
2. من أعلام الفكر والأدب في دير الزور –وهي الجزء الثالث من الحركة الثقافية.
3. محمد الفراتي.. الشاعر الثائر –دراسة أدبية.
4. عودة الكناري –مجموعة قصص للفتيان.
5. عندما تسقط أوراق التوت –رواية.